القضاء والقدر

لدار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

طبعة خاصة بمصر
والمغرب العربي واليمن

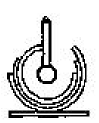
(يمنع تداولها في دول الخليج العربي)

١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

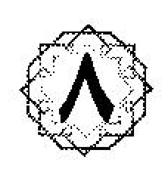
جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٢٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com



دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ - فاكس : ٥٦٩٣٩٤١
بريد إلكتروني : ALNAFAES@HOTMAIL.COM

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة



القضاء والقدر

أ.د. عمر سليمان عبدالله الأشقر





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا إليه صراطاً مستقيماً، وجعلنا من أهل طاعته، وأكرمنا بالإسلام، وهدانا للإيمان، وأصلي على خاتم رسله وأنبيائه، الذي بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين من ربّه، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الأخيار، وأصحابه الأبرار، وبعد:

فهٰذا هو الكتاب الأخير في السلسلة التي ابتدأتها منذ أكثر من عشر سنوات، وإنني أحمد الله على أن وفقني لإتمام هٰذا العمل، وإني لأرجو من الله القبول، وأن يجعل نيتي خالصة لوجهه، وأن يثيبني على عملي هٰذا في يوم لقياه، كما أعانني على إتمامه في هٰذه الحياة.

لقد أكرمني ربي بأن لاقت هٰذه السلسلة قبولاً حسناً عند عباد الله، وإني لأرجو ربي أن يتقبلها مني، ويرضى عن عملي بفضله وكرمه وإحسانه، وأن يغفر لي ما وقعت فيه من زلل وتقصير في العمل، وإني لأرجو من قراء هٰذه السلسلة الدعاء لكاتبها بأن يتجاوز الله عن زلاته، ويصفح عن آثامه، لعلّ الله يرحمني ببركة دعوة صالحة من عبد صالح.

وقد طال انتظار القراء لهٰذا الجزء، وحال دون إخراجه أعمال تلاحقت، ومشاغل لم أستطع منها فكاكاً، حتى شاء الله أن أجد فسحة من الوقت، فقدّرني ربي على كتابته وإتمامه، وكنت قبل هٰذا الوقت حاولت أن أكتب فيه، ولكن كان يضيق صدري بعد أن أبدأ الكتابة، فقد كنت

متخوفاً من الكتابة في موضوع زلّت فيه أقلام كثير من الناس، وضلَّ فيه كثير من الذين أُعْطُوا ذكاءً وفطنة.

لقد كان هٰذا الباب ولا يزال من أعوص الأبواب التي خاض فيها الخائضون، وكثير من أهل الضلال أُتُوا من الانحراف في باب القدر، وكم من خائض فيه يظن نفسه محسناً، وهو قد تاه وحار، وتنكب الطريق.

يقول العلامة ابن القيم مقدماً لكتابه «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل»: «سلك جماهير العقلاء في هٰذا الباب في كل واد، وأخذوا في كل طريق، وتولجوا كل مضيق، وركبوا كل صعب وذلول، وقصدوا الوصول إلى معرفته، والوقوف على حقيقته وتكلَمتْ فيه الأمم قديماً وحديثاً، وساروا للوصول إلى مغزاه سيراً حثيثاً، وخاضت فيه الفرق على تباينها واختلافها، وصنّف فيه المصنفون الكتب على تنوع أصنافها، فلا أحد إلا وهو يحدث نفسه بهٰذا الشأن، ويطلب الوصول فيه إليه حقيقة العرفان، فتراه متردداً فيه مع نفسه، أو مناظراً لبني جنسه، وكلٌّ قد اختار لنفسه قولاً لا يعتقد الصواب في سواه، ولا يرتضي إلا إياه.

وكلهم إلا من تمسك بالوحي عن طريق الصواب مردود، وباب الهدى في وجهه مسدود، تحسى على غير طائل، وارتوى من ماء آجن، قد طاف على باب الأفكار، ففاز بأخس الآراء والمطالب، فرح بما عنده من العلم الذي لا يُسمن ولا يغني من جوع، وقدم آراء من أحسن به الظن على الوحي المنزل المشروع، والنصِّ المرفوع، حيران يأتم بكل حيران، يحسب كل شراب ماء فهو طول عمره ظمآن، يُنادَى إلى الصواب من مكان بعيد، أقبل إلى الهدى فلا يستجيب إلى يوم الوعيد، لقد فرح بما

عنده من الضلال، وقنع بأنواع الباطل وأصناف المحال، منعه الكفر الذي اعتقده هدى، وما هو ببالغه عن الهداة المهتدين، ولسان حاله أو قاله يقول: أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا، أليس الله بأعلم بالشاكرين»[1].

لقد رأيت مصداق ما قاله ابن القيم في كلامه الذي نقلناه عنه فيما اطلعت عليه من كلام الخائضين في القدر قديماً وحديثاً، فكنت أخشى على نفسي من الخوض في هٰذا الموضوع والكتابة فيه، وكان يدفعني إلى الكتابة فيه الرغبة في إتمام هٰذه السلسلة، وسؤال كثير من طلبة العلم عن أوان صدور هٰذا الكتاب.

فاستعنت بالله، وأوغلت في هٰذا الباب برفق، متأسياً بمنهج أهل العلم ممن شُهِدَ له بالاستقامة والإمامة في الدين والعلم، ولذلك فقد أكثرت من النقول فيما كتبت في هٰذا الكتاب، وأكثرت من أقوال أهل التقى والصلاح من سلفنا الصالح اتباعاً لسبيل المؤمنين، أملاً في أن لا ينحرف بي المسار، ولا أضل في منحنيات الطريق. ولقد كانت آيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ هي الأنوار التي أستضيء بها في المسار الذي سلكته، والعلم الذي دونته، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإني لأرجو من أهل العلم تسديد ما زلّ فيه القلم، وتعثر فيه الفكر، وشرد به القول.

وقد جاء هٰذ الكتاب بعد هٰذه الفاتحة في سبعة فصول:

بينت في الفصل الأول وجوب الإيمان بالقدر، وقررت أن الإيمان به

---

(١) شفاء العيل: ص١٤.

أصل من أصول الإيمان.

وألقيت في الفصل الثاني نظرة عجلى على تاريخ القول بالقدر.

والفصل الثالث مخصص لتعريف القدر وبيان أركانه.

وقد عقدت فيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مخصص للتعريف بالقدر.

وفي المبحث الثاني: عرّفت القضاء مبيناً الصلة بينه وبين القدر.

وذكرت في المبحث الثالث أركان الإيمان بالقدر التي لا يتم إيمان أحد به مالم يؤمن بها.

والمبحث الرابع: معقود للتدليل على أن أفعال العباد مقدَّرة مقضية مخلوقة لله عز وجل، وقد أوردت كثيراً من النصوص الدالة على ذلك من الكتاب والسنة.

والفصل الرابع جعلته لبيان حدود نظر العقل في القدر، وبيان ما يمكنه إدراكه وما لا يمكنه في هٰذا الباب.

والفصل الخامس معقود لبيان المذاهب في القدر وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ذكرت فيه مذهب المكذبين بالقدر، وأوردت فيه مذهبهم، كما بينت ضلالهم، ومحاورات العلماء لهٰذا الفريق، كما أوردت ما يظنونه أدلة تؤيد مذهبهم، وهي في الواقع شبهات لا تكاد تسلط عليها أضواء الحق حتى تتلاشى وتزول لمن هداه الله وشرح صدره للإيمان.

والمبحث الثاني: مخصص لبيان المذهب الذي أضل الأمّة وعطل عقول أبنائها وشل إرادتهم وحركتهم، وعطّل طاقاتهم وجَبّر أعمالهم

لأعداء الإسلام، ألا وهو مذهب القدرية المجبرة الذين تركوا العمل، احتجاجاً بالقدر.

وقد بينت أنهم ضلوا من سبعة أوجه.

والمبحث الثالث: خصصته لبيان مذهب أهل السنة والجماعة، وقد عقدت له ثلاثة مطالب، سُقت في كل مطلب منها عقيدةً دوَّنها عالم من علماء أهل السنة في باب القدر.

والفصل السادس: جعلته لبيان السبب في ضلال العباد في باب القدر.

وذكرت في الفصل السابع والأخير بعض الثمار الطيبة للإيمان بالقدر.

أسأل الله تعالى أن أكون قد وُفِّقت في تجلية هٰذا الأصل، كما أسأله أن ينفع به عباده، إنه نعم المولى ونعم النصير، وهو حسبي ونعم الوكيل.

د. عمر سليمان الأشقر

٢٥ من رجب ١٤١٠ هـ

١٩٩٠/٢/٢١



الفصل الأول

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، ففي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب في سؤال جبريل عليه السلام الرسول ﷺ عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه. قال (أي جبريل عليه السلام): صدقت»[1]. والنصوص المخبرة عن قدر الله أو الآمرة بالإيمان بالقدر كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، وقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:٤٢]. وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]. وقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:١-٣].

وروى مسلم في صحيحه عن طاووس قال: «أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر. قال وسمعت عبد الله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجزُ والكَيْس[2]، أو الكَيْس والعَجْز»[3].

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون

---

(١) شرح النووي على مسلم: ١/١٥٧.

(٢) الكَيْس ضد العجز.

(٣) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٤٥ ورقمه: ٢٦٥٥.

رسول الله ﷺ في القدر، فنزلت: ﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾ [القمر: ٤٨-٤٩](١).

والنصوص في ذلك كثيرة جداً فإنّ النصوص الدالة على علم الله وقدرته ومشيئته وخلقه تدل على قدره تبارك وتعالى، فالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله ومشيئته وخلقه، كما سيأتي بيانه، وذكر النصوص الواردة في ذلك.

والقدر يدل بوضعه -كما يقول الراغب الأصفهاني فيما نقله عنه ابن حجر العسقلاني- على القدرة وعلى المقدور الكائن بالعلم(٢).

فلله تعالى القدرة المطلقة، وقدرته لا يعجزها شيء، ومن أسمائه -تبارك وتعالى- القادر والقدير والمقتدر، والقدرة صفة من صفاته.

فالقادر اسم فاعل من قدر يقدر.

والقدير فعيل منه، وهو للمبالغة، ومعنى (القدير) الفاعل لما يشاء، على قدر ما تقتضيه الحكمة لا زائداً عليه، ولا ناقصاً عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله عز وجل. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

و(المقتدر) مفتعل من اقتدر، وهو أبلغ من (قدير) ومنه قوله: ﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾ [القمر: ٥٥].

وقد سئل الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- عن القدر: فقال: «القدر قدرة الله»(٣).

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢٠٤٦. ورقمه: ٢٦٥٦، ورواه الترمذي: انظر صحيح سنن الترمذي: ٣/٢٢٩.

(٢) فتح الباري: ١١/٤٧٧.

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/٣٠٨.

قال ابن القيم: «وقال الإمام أحمد: القدرُ قدرة الله. واستحسن ابن عقيل هٰذا الكلام جداً، وقال: هٰذا يدل على دقة أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفا، فإن إنكاره إنكار لقدرة الرب على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها» وقد صاغ ابن القيم هٰذا المعنى شعراً فقال:

فحقيقة القدر الذي حار الورى ... في شأنه هو قدرة الرحمٰن

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد ... لما حكاه عن الرضا الربان

له قال الإمام شفى القلوب بلفظةٍ ... ذات اختصار وهي ذات بيان

ولذا فإن الذين يكذبون بالقدر لا يثبتون قدرة الله تعالى، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «مَنْ لم يقل بقول السلف فإنه لا يُثْبِت لله قدرة، ولا يثبته قادراً كالجهمية ومن اتبعهم، والمعتزلة المجبرة والنافية: حقيقة قولهم أنه ليس قادراً، وليس له الملك، فإن المُلْك إما أن يكون هو القدرة، أو المقدور، أو كلاهما، وعلى كل تقدير فلا بدَّ من القدرة، فمن لم يثبت له قدرة حقيقية لم يثبت له ملكاً»[1].

والذين كذبوا بالقدر لم يوحدوا الله عز وجل، فإن نفاة القدر «يقولون: خالق الخير غير خالق الشر، ويقول من كان منهم في ملتنا: إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئة الله تعالى، وربما قالوا: ولا يعلمها أيضاً، ويقولون: إن جميع أفعال الحيوان واقعة بغير قدرته ولا صنعه، فيجحدون مشيئته النافذة، وقدرته الشاملة، ولهٰذا قال ابن عباس: القدر نظام التوحيد، فمن وحَّد الله وآمن بالقدر تمَّ توحيده، ومن وَحَّدَ الله وكذَّب

---

(١) شفاء العليل: ٤٩.

بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه»[1].

وقد تقاطر أهل العلم على تقرير القدر والنصِّ على وجوب الإيمان به، وما من عالم من علماء أهل السنة الذين هم أعلام الهدى وأنوار الدجا إلا وقد نصَّ على وجوب الإيمان به، وبدَّع وسفَّه من أنكره وردَّه.

يقول النووي رحمه الله تعالى في شرحه لأحاديث القدر من صحيح مسلم: «وفي هٰذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر، وأن جميع الواقعات بقضاء الله وقدره خيرها وشرها نفعها وضرها»[2].

وقال في موضع آخر: «تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى»[3].

ويقول ابن حجر رحمه الله تعالى: «مذهب السلف قاطبة أن الأمور كلَّها بتقدير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١]»[4].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/٢٥٨.

(٢) شرح النووي على مسلم: ١٦/١٩٦.

(٣) شرح النووي على مسلم ٢/ ١٥٥.

(٤) فتح الباري: ١١/٤٧٨.

الفصل الثاني

نظرة في تاريخ القدر

الإيمان بالقدر أحد أصول الإيمان، وقد بيَّن الكتاب والسنة مفهوم القدر، وبين الرسول ﷺ أن العمل والأخذ بالأسباب هو من القدر، ولا ينافيه ولا يناقضه، وحذر أمته من الذين يكذبون بالقدر، أو يعارضون به الشرع.

وغضب الرسول ﷺ غضباً شديداً عندما خرج على أصحابه يوماً وهم يتنازعون في القدر، حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فُقِىء في وجنتيه الرمان، فقال: «أبهٰذا أمرتم، أم بهٰذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هٰذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»[1].

واستجاب الصحابة رضوان الله عليهم لعزيمة نبيهم وتوجيهه، فلم يُعرف عن واحد منهم أنه نازع في القدر في حياة الرسول ﷺ أو بعد وفاته.

ولم يَرِدْ إلينا أن واحداً من المسلمين نازع في القدر في عهد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان، وكل ما ورد إلينا أن أبا عبيدة عامر بن الجراح اعترض على رجوع عمر بالناس عن دخول الشام عندما انتشر بها الطاعون، وقال لعمر بن الخطاب: «يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله»؟

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ٢/٢٢٣.

فقال عمر: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت إن كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله»[1].

وروى اللالكائي أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية (من أرض الشام) فقال في خطبته: «من يضلل الله فلا هادي له». وكان الجثاليق[2] بين يديه، فقال: إن الله لا يضل أحداً، وعندما كررها عمر بن الخطاب: نفض الجثاليق ثوبه ينكر قول عمر.

فقال له عمر بعد أن تُرجم له كلامه: «كذبت يا عدو الله، بل الله خلقك، والله يضلك، ثم يميتك، فيدخلك النار إن شاء الله... إن الله خلق الخلق، وقال: حين خُلق آدم نثر ذريته في يده، وكتب أهل الجنّة وماهم عاملون، وكتب أهل النار وما هم عاملون، ثم قال: «هٰؤلاء لهٰذه، وهٰؤلاء لهٰذه». فتفرق الناس وما يختلف في القدر اثنان»[3].

وأول من تكلم بالقدر رجل من أهل البصرة كان يعمل بقالاً يقال له سَنْسَويه، قال الأوزاعي: «أول من نطق في القدر رجل من العراق يقال له: سوسن، كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصَّر، فأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد»[4].

وقال يونس بن عبيد: «أدركت البصرة وما بها قدري إلا سَنْسَويه ومعبد

---

(١) صحيح البخاري: انظر فتح الباري ١٠/ ١٧٩، ورقم الحديث: ٥٧٢٩.

(٢) جثاليق النصارى: رأسهم ومقدمهم.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ٣/ ٦٥٩.

(٤) شرح أصول الاعتقاد: ٣/ ٧٥٠ وانظر الشريعة للآجري: ص٢٤٢.

الجهني، وآخر ملعون في بني عوافة»[1].

وروى مسلم في صحيحه عن بُرَيْدة بن يحيى بن يعمر قال: «كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني» وذكر بريدة في حديثه أن معبداً ومن معه يزعمون «أن لا قدر، وأن الأمر أنف»[2].

وقد أثار الصحابة الأحياء في ذلك الوقت كعبد الله بن عمر وابن عباس وواثلة بن الأصقع، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة، وأنس بن مالك حرباً على أصحاب هٰذه المقالة[3]. ثم أخذ هٰذا المذهب عن معبدٍ رؤوسُ الاعتزال وأئمته كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وغيلان الدمشقي.

فأما واصل بن عطاء رأس الاعتزال، فقد زعم أن الشر لا يجوز إضافته إلى الله، لأن الله حكيم، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر، ويحتم عليهم شيئاً، ثمَّ يجازيهم عليه.

وقرر في مقالته: أن العبد هو الفاعل للخير والشر، والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وهو المجازى على فعله، والربُّ تعالى أقدره على ذلك كله[4].

وذهب النظام من المعتزلة إلى أن الله لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي، وليست هي مقدورة لله[5].

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٣/ ٧٤٩.
(٢) شرح النووي على مسلم: ١/ ١٥٠.
(٣) راجع: الفرق بين الفرق: ص١٩.
(٤) الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ٤٧.
(٥) الملل والنحل: ١/ ٥٤.

وهٰذه الفرقة هي التي أطلق عليها علماؤنا: اسم القدرية. «وسموا بذلك لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه، وهٰؤلاء مع ضلالتهم يضيفون هٰذا الاسم إلى مخالفيهم من أهل الهدى، فيقولون: أنتم القدرية حين تجعلون الأشياء جارية بقدر من الله، وإنكم أولى بهٰذا الاسم منا»[1].

وقد ذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم: «أن بعض القدرية قال: لسنا بقدرية، بل أنتم القدرية، لاعتقادكم إثبات القدر.

قال ابن قتيبة والإمام (يريد الإمام الجويني): «هٰذا تمويه من هٰؤلاء الجهلة ومباهته وتواقح، فإن أهل الحق يفوضون أمورهم إلى الله سبحانه وتعالى، ويضيفون القدر والأفعال إلى الله سبحانه وتعالى، وهٰؤلاء الجهلة يضيفونه إلى أنفسهم، ومُدَّعي الشيء لنفسه، ومضيفه إليها أولى بأن ينسب إليه ممن يعتقده لغيره، وينفيه عن نفسه»[2].

وقد صح أن الرسول ﷺ سمّى القدرية مجوس هٰذه الأمة، والحديث أخرجه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه على الصحيحين، وقال: صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر[3].

والسبب في تسمية هٰذه الفرقة بمجوس هٰذه الأمة «مضاهاة مذهبهم المجوس في قولهم بالأصلين: النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة، فصاروا ثَـنَوِيَّـة، وكذلك القدرية يضيفون

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير: ١٠/ ١٢٨.

(٢) شرح النووي على مسلم: ١/ ١٥٤.

(٣) شرح النووي على مسلم: ١/ ١٥٤.

الخير إلى الله تعالى، والشر إلى غيره، والله -سبحانه وتعالى- خالق الخير والشر جميعاً، لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته، فهما مضافان إليه -سبحانه وتعالى- خلقاً وإيجاداً، وإلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً»[1][2].

ونشأ في آخر عهد بني أميّة أقوام يزعمون أن العبد مجبور على فعله، ليس له خيار فيما يأخذ أو يدع، وبعضهم يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة، وأول من ظهر عنه هٰذا القول هو الجهم بن صفوان، وتفرع عن هٰذه البدعة أقوال شنيعة، وضلال كبير[3].

وقد انتشر هٰذا القول في الأمّة الإسلامية وتقلّده كثير من العباد والزهاد والمتصوفة، وإذا كان الفريق الأول أشبه المجوس فإن هٰذا الفريق أشبه المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وهٰذا الفريق شرٌّ من الفريق الأول، لأن الأولين عظموا الأمر والنهي، وأخرجوا أفعال العباد عن أن تكون خلقاً لله، وهٰذا الفريق أثبت القدر، واحتج به على إبطال الأمر والنهي[4][5].

---

(١) نقل هٰذا الكلام النووي في شرحه على مسلم: ١/ ١٥٤ عن الخطابي. وانظر جامع الأصول: ١٠/ ١٢٨.

(٢) سيأتي مزيد بيان لهٰذه الفرقة ومعتقداتها وبيان ضلالها عندما نتكلم على الذين ضلوا في باب القدر.

(٣) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ٤٦٠، والملل والنحل للشهرستاني: ١/ ٨٥.

(٤) عقيدة السفاريني: ١/ ٣٠٦.

(٥) سيأتي مزيد بحث عن أصحاب هٰذا التوجه.



الفصل الثالث
التعريف بالقضاء والقدر

المبحث الأول
التعريف بالقدر

«القدر مصدر، تقول: قَدَرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها أَقْدِره بالكسر والفتح قَدْراً وقَدَراً، إذا أحطت بمقداره»[1].

والقدر في اللغة «القضاء والحكم ومبلغ الشيء، والتقدير التروية والتفكر في تسوية الأمر»[2].

والقدر في الاصطلاح: «ما سبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه -عزّ وجلّ- قدَّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها»[3].

وقال ابن حجر في تعريفه: «المراد أنّ الله -تعالى- علم مقادير الأشياء

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ١/ ١١٨.

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي: ص٥٩١.

(٣) عقيدة السفاريني: ١/ ٣٤٨.

وأزمانها قبل إيجادها، ثمّ أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته»[1].

ونقل السفاريني عن الأشعرية أن «القدر إيجاد الله -تعالى- الأشياء على قدر مخصوص، وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم»[2].

وهٰذه التعريفات متقاربة فيما بينها، وهي تفيد أن القدر يشمل أمرين:

الأول: علم الله الأزلي الذي حكم فيه بوجود ما شاء أن يوجده، وحدد صفات المخلوقات التي يريد إيجادها، وقد كتب كل ذلك في اللوح المحفوظ بكلماته، فالأرض والسماء أحجامهما وأبعادهما وطريقة تكوينهما وما بينهما وما فيهما كل ذلك مدون علمه في اللوح المحفوظ تدويناً دقيقاً وافياً.

والثاني: إيجاد ما قدر الله إيجاده على النحو الذي سبق علمه وجرى به قلمه، فيأتي الواقع المشهود مطابقاً للعلم السابق المكتوب.

والقدر يطلق ويراد به التقدير السابق لما في علم الله، ويطلق ويراد ما خلقه وأوجده على النحو الذي علمه.

وسئل الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- عن القدر فأجاب شعراً قائلاً:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكنْ

خلقتَ العباد على ما علمتَ ... ففي العلم يجري الفتى والمُسِنْ

---

(١) فتح الباري: ١/ ١١٨.

(٢) عقيدة السفاريني: ١/ ٣٤٥.

على ذا مننتَ وهٰذا خذلتَ ... وهٰذا أعنتَ وهٰذا لم تُعِنْ

فمنهم شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حَسَنْ[1]

---

(١) الاعتقاد للبيهقي: ص١٦٢ . شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ٧٠٢.

المبحث الثاني

تعريف بالقضاء

«القضاء: الفصل والحكم. وقد تكرر في أحاديث الرسول ﷺ ذكر (القضاء) وأصله القطع والفصل. يُقال: قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ، إذا حكم وفصل. وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق.

وقال الزهري: القضاء في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقضاء الشيء وتمامه، وكل ما أُحكم عمله، أو أُتمّ، أو أُدّي، أو أُوجب، أو عُلم، أو نُفِّذ، أو أُمضي، فقد قضي، وقد جاءت هٰذه الوجوه كلها في الأحاديث[1].

وللعلماء في التفرقة بين القضاء والقدر قولان:

الأول: القضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق. يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: «قال العلماء القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله»[2]. وقال في موضع آخر: «القضاء الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل»[3].

---

(١) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/٧٨.

(٢) فتح الباري: ١١/٤٧٧.

(٣) فتح الباري: ١١/١٤٩.

الثاني: عكس القول السابق، فالقدر هو الحكم السابق، والقضاء هو الخلق.

قال ابن بطال: «القضاء هو المقضي»[1] ومراده بالمقضي المخلوق، وهٰذا هو قول الخطابي، فقد قال في معالم السنن: «القدر اسم لما صار مُقدَّراً عن فعل القادر، كالهدم والنشر والقبض: أسماء لما صدر من فِعل الهادم والناشر والقابض.

والقضاء في هٰذا معناه الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] أي خلقهن»[2].

وبناء على هٰذا القول يكون «القضاء من الله تعالى أخص من القدر، لأنّه الفصل بين التقديرين، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع»[3].

ويدل لصحة هٰذا القول نصوص كثيرة من كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]، وقال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]. وقال: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

فالقضاء والقدر - بناء على هٰذا القول- أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه»[4].

---

(١) فتح الباري: ١١/١٤٩.

(٢) معالم السنن للخطابي: ٧/ ٧٠.

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني: ص٤٠٦.

(٤) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٤/٧٨. وانظر جامع الأصول: ١٠/ ١٠٤.

المبحث الثالث

أركان الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان، من أقرَّ بها جميعاً فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملاً، ومن انتقص واحداً منها أو أكثر فقد اختل إيمانه بالقدر، وهٰذه الأركان الأربعة هي:

الأول: الإيمان بعلم الله الشامل المحيط.

الثاني: الإيمان بكتابة الله في اللوح المحفوظ لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة.

الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن.

الرابع: خلقه تبارك وتعالى لكل موجود، لا شريك لله في خلقه.

وسنتناول هٰذه الأصول الأربعة بشيء من التفصيل.

الركن الأول

الإيمان بعلم الله الشامل

وقد كثر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تقرير هٰذا الأصل العظيم، فعلم الله محيط بكل شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، ومالم يكن لو كان كيف

يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن والمستحيل.

وهو عالم بالعباد وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن منهم من أهل الجنة، ومن منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ويخلق السموات والأرض.

وكل ذلك مقتضى اتصافه -تبارك وتعالى- بالعلم، ومقتضى كونه -تبارك وتعالى- هو العليم الخبير السميع البصير.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقال: ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢]. وقال: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾ [سبأ: ٣]. وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقال: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال الحق مقرراً علمه بما لم يكن لو كان كيف سيكون ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [الأنعام:٢٨]، فالله يعلم أن هؤلاء المكذبين الذين يتمنون في يوم القيامة الرجعة إلى الدنيا أنهم لو عادوا إليها لرجعوا إلى تكذيبهم وضلالهم.

وقال في الكفار الذين لا يطيقون سماع الهدى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

ومن علمه تبارك وتعالى بما هو كائن علمه بما كان الأطفال الذين توفوا صغاراً عاملين لو أنهم كبروا قبل مماتهم.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: «سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين»[1].

وروى مسلم عن عائشة أم المؤمنين قالت: توفي صبي، فقلت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة.

فقال رسول الله ﷺ: «أولا تدرين أن الله خلق الجنة والنار، فخلق لهٰذه أهلاً ولهٰذه أهلاً».

وفي رواية عند مسلم أيضاً عن عائشة قالت: «دُعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى لهٰذا، عصفور من عصافير الجنّة، لم يعمل السوء ولم يدركه.

قال: أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنّة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[2].

وهٰذه الأحاديث تتحدث عن علم الله في من مات صغيراً، لا أن هٰؤلاء يدخلهم الله النار بعلمه فيهم من غير أن يعملوا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في قوله ﷺ في أبناء المشركين: «الله أعلم بما كانوا عاملين» «أي يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر لو بلغوا، ثم إنه جاء في حديثٍ إسناده مقارب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة فإن الله يمتحنهم، ويبعث إليهم رسولاً في عرصة القيامة، فمن أجابه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله

---

(١) انظر فتح الباري: ١١/ ٤٩٣ ورواه مسلم بلفظه عن أبي هريرة: ٤/ ٢٠٤٩ ورقمه: ٢٦٥٩.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٥٠ ورقمه: ٢٦٦٢.

النار» فهنالك يظهر فيهم ما علمه الله سبحانه، ويجزيهم على ما ظهر من العلم، وهو إيمانهم وكفرهم، لا على مجرد العلم»[1].

الأدلة العقلية على أن الله علم مقادير الخلائق قبل خلقهم:

والحق أن وجود هٰذا الكون، ووجود كل مخلوق فيه يدلُّ دلالة واضحة على أن الله علم به قبل خلقه، «فإنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل، لأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم بالمراد، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم»[2].

وأيضاً فإن «المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم»[3].

واستدل العلماء على علمه تبارك وتعالى بقياس الأولى: «فالمخلوقات فيها ما هو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً». والاستدلال بهٰذا الدليل له صيغتان:

أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين:

أحدهما عالم والآخر غير عالم، كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤/٢٤٦.

(٢) شرح الطحاوية: ص١٤٨.

(٣) شرح الطحاوية: ص١٤٨.

الثاني: كل علم في المخلوقات فهو من الله تبارك وتعالى، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً منه، بل هو أحق به، ذلك أن كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق أحق به، وكلُّ نقص تنزه عنه مخلوق ما، فتنزه الخالق عنه أولى»[1].

وكل هٰذه الأدلة يمكنك أن تلمحها في قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ويستدل على علمه -تبارك وتعالى- بإخباره بالأشياء والأحداث قبل وقوعها وحدوثها، فقد أخبر الحق في كتبه السابقة عن بعثه رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وصفاته وأخلاقه وعلاماته، كما أخبر عن الكثير من صفات أمته، وأخبر في محكم كتابه أن الروم سينتصرون في بضع سنين على الفُرس المجوس، ووقع الأمر كما أخبر، والإخبار عن المغيبات المستقبلة كثير في الكتاب والسنة.

الركن الثاني

الإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء

دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال:

---

(١) شرح الطحاوية: ص١٤٨.

وعرشه على الماء»[1].

ورواه الترمذي بلفظ: «قدَّر الله المقادير قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة»[2].

وفي سنن الترمذي أيضاً عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان، وما هو كائن إلى الأبد».

قال أبو عيسى الترمذي: وهٰذا حديث غريب من هٰذا الوجه[3].

واللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق سماه القرآن بالكتاب، وبالكتاب المبين، وبالإمام المبين وبأم الكتاب، والكتاب المسطور. قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. وقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٠] وقال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال: ﴿وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ١-٣]. وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٤٤. ورقم الحديث: ٢٦٥٣.

(٢) سنن الترمذي: (٤/٤٥٨) ورقمه ٢١٥٦. وقال فيه: حديث حسن صحيح.

(٣) سنن الترمذي: ٤/٤٥٨. ورقمه: ٢٠٥٥. والحديث صحيح. فالغرابة إنما هي في الوجه الذي أورده الترمذي في باب القدر، وإلا فإنه قد أورده في كتاب التفسير، وقال فيه: حديث حسن غريب. وقد أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن الترمذي: (٢/٢٢٨) وذكر أنه خرجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة وغيرها.

الركن الثالث

الإيمان بمشيئة الله الشاملة وقدرته النافذة

وهٰذا الأصل يقضي بالإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون في السمٰوات ولا في الأرض إلا بمشيئته، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد.

والنصوص المصرحة بهٰذا الأصل المقررة له كثيرة وافرة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٣٦]، وقال: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

ومشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن.

فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لا محاله، وما لم يشأ الله تعالى إياه لا يكن لعدم مشيئة الله تعالى ليس لعدم قدرته عليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ

جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، والآيات في هٰذا كثيرة تدل على عدم وجود مالم يشأ وجوده لعدم مشيئته ذلك، لا لعدم قدرته عليه، فإنه على كل شيء قدير تبارك وتعالى.

الركن الرابع

الإيمان بأن الله خالق كلّ شيء

قررت النصوص أن الله خالق كل شيء، فهو الذي خلق الخلق وكوّنهم وأوجدهم، فهو الخالق وما سواه مربوب مخلوق ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، والنصوص في هٰذا كثيرة طيبة.

المَبحث الرابع

أفعال العباد مخلوقة مقدرة

لا يخرج العباد وأفعالهم عن غيرها من المخلوقات، فقد علم الله ما سيخلقه من عباده، وعلم ما هم فاعلون، وكتب كل ذلك في اللوح المحفوظ، وخلقهم الله كما شاء، ومضى قدر الله فيهم، فعملوا على النحو الذي شاءه فيهم، وهدى مَن كتب الله له السعادة، وأضل مَن كتب عليه الشقاوة، وعلم أهلَ الجنة ويسرهم لعمل أهلها، وعلم أهلَ النار ويسرهم لعمل أهلها.

والنصوص التي سقناها فيما سبق تكفي في الدلالة على هٰذا الذي قررناه هنا، ومع ذلك فهناك نصوص كثيرة أخرى أصرح في الدلالة في هٰذه المسألة.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، وقال: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ [الصافات: ٥٢]، وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]. وقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وجاءت أحاديث كثيرة تواتر معناها على أن رب العباد علم ما العباد عاملون، وقدّر ذلك وقضاه وفرغ منه، وعلم ما سيصير إليه العباد من

السعادة والشقاء، وأخبرت مع ذلك كله أن القدر لا يمنع من العمل، «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

وسنورد هنا بعض النصوص الدالة على ذلك.

النصوص الدالة على تقدير الله أفعال العباد

١- الأحاديث الدالة على أن أعمال العباد جفَّت بها الأقلام وجرت بها المقادير:

روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: جاء سراقة بن مالك بن جُعْشم قال: يا رسول الله، بيّن لنا ديننا كأنّا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جَفَّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: «لا، بل فيما جفَّت به الأقلام وجرت به المقادير».

قال: ففيم العمل؟

فقال: «اعملوا فكلٌّ ميسر» وفي رواية: «كل عامل ميسَّر لعمله»[١].

وروى الترمذي في سننه أن عمر بن الخطاب قال للرسول ﷺ: «يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه، أمر مبتدع أو مبتدأ، أو فيما فرغ منه؟

فقال: فيما فرغ منه يا ابن الخطاب، وكلٌّ ميسَّر، أمّا من كان من أهل السعادة فإنّه يعمل للسعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاء فإنّه يعمل للشقاء».

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤٠ ورقم الحديث: ٢٦٤٨.

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح[١].

٢- علم الله بأهل الجنة وأهل النار:

وروى البخاري عن عمران بن حصين قال: قال رجل: يا رسول الله، «أَيُعْرف أهل الجنّة من أهل النار؟

فقال: نعم.

قال: فلم يعملون؟ قال: كلٌّ يعمل لما خلق له، أو يسر له».

وروى مسلم في صحيحه عن عليّ قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد[٢]. فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرة[٣]. فنكّس[٤]، فجعل ينكث بمخصرته[٥]، ثم قال: «ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنّة أو النار، وإلاّ قد كتبت شقيّة أو سعيدة».

قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة». فقال[٦]: «اعملوا فكل ميسر، أمّا أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأمّا أهل

---

(١) رواه الترمذي: ٤/ ٤٤٥. ورقم الحديث: ٢١٣٥.

(٢) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.

(٣) المخصرة: عصا صغيرة.

(٤) نكس رأسه: خفضه.

(٥) أي يخط بمخصرته في التراب.

(٦) هكذا في الحديث كرر «فقال».

الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠]»[١].

٣- استخراج ذرية آدم من ظهره بعد خلقه وقسمهم إلى فريقين: أهل الجنة وأهل النار:

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن الله مسح ظهر آدم بعد خلقه له، واستخرج ذريته من ظهره أمثال الذر، واستخرج منهم أهل الجنة وأهل النار.

روى مالك والترمذي وأبو داود عن مسلم بن يسار قال: سئل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن هٰذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال: «إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هٰؤلاء للجنّة، وبعمل أهل الجنّة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هٰؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: ففيم العمل يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنّة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنّة، فيدخله الله الجنّة.

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢٠٣٩. ورقم الحديث: ٢٦٤٧. والحديث رواه البخاري في غير موضع في صحيحه ورواه الترمذي وأبو داود. واللفظ الذي سقناه هنا لمسلم.

وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله الله النار»[١].

وروى الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح إلى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان -يعني عرفه- فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قُبُلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]»[٢].

وروى أحمد في مسنده بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى، فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال للذي في يمينه: إلى الجنّة ولا أبالي، وقال للذي في كَفّه اليسرى: إلى النار ولا أبالي»[٣].

وبين الرسول ﷺ في حديث آخر «أنَّ الله -عز وجل- خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل» فلذلك أقول جفَّ القلم على علم الله.

رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو وقال فيه: هذا حديث حسن[٤].

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٣٤ ورقم الحديث: ٩٥ وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني فيه: رجال إسناده ثقات رجال الشيخين، غير أنه منقطع بين مسلم بن يسار وعمر، لكن له شواهد كثيرة.

(٢) مشكاة المصابيح: ١/ ٤٣.

(٣) مشكاة المصابيح: ١/ ٤٢.

(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٢٦. ورقم الحديث (٢٦٤٢).

٤- كتابة الله لأهل الجنة وأهل النار:

وروى الترمذي في سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان: فقال: أتدرون ما هٰذان الكتابان؟ فقلنا: لا يا رسول الله، إلاّ أن تخبرنا.

فقال للذي في يده اليمنى: هٰذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمَّ أُجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً.

ثمَّ قال للذي في شماله: هٰذا كتاب من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمَّ أُجمل على آخرهم[١]، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً.

فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟

فقال: سدِّدوا وقاربوا[٢]، فإن صاحب الجنَّة يختم له بعمل أهل الجنَّة، وإن عمل أيّ عمل. وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل.

ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما. ثمَّ قال: فرغ ربكم من العباد، فريق في الجنَّة وفريق في السعير».

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن غريب صحيح[٣].

---

(١) أجمل على آخرهم، أي: جمعوا أهل الجنة وأهل النار عن آخرهم، وعُقدت جملتهم، فلا يتطرق إليها زيادة ولا نقصان.

(٢) السداد: الصواب في القول والعمل. والمقاربة: القصد فيهما.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٤٥٠. ورقم الحديث ٢١٤١ وهو في صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر: ٢/ ٢٢٥.

٥- التقدير في ليلة القدر والتقدير اليومي:

بينا من قبل أن الله قدَّر مقادير عباده قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، ودلّ الكتاب والسنة على أن هناك تقديران تقدير حولي وتقدير يومي، فأما التقدير الحولي ففي ليلة القدر، ففيها يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر، وما يقوم به العباد من أعمال ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٣-٥].

أما التقدير اليومي فهو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

روى ابن جرير عن منيب بن عبد الله عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ هٰذه الآية، فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال: أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين.

وجملة أقوال المفسرين في الآية «أن الله من شأنه في كل يوم أن يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ويعز قوماً ويذل قوماً، ويشفي مريضاً، ويفك عانياً، ويفرج مكروباً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنباً، إلى مالا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه»[١].

---

(١) ذكره صاحب معارج القبول: ١/٣٤٦ عن البغوي المفسر.

٦- كتابة ما قدر للإنسان وهو جنين في رحم أمّه:

ورد في الأحاديث أن الله يرسل ملكاً للجنين في رحم أمه فيكتب رزقه وأجله وشقاءَه وسعادته، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن عبد الله (هو ابن مسعود) قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثمّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة، فيدخلها»[١].

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «وكّل الله بالرحم ملكاً، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة. فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب ذكر أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل، فيكتب كل ذلك في بطن أمه»[٢].

وروى الترمذي في سننه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟

---

(١) رواه البخاري، انظر فتح الباري: ١١/ ٤٧٧. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٣٦. ورقم الحديث: ٢٦٤٣. والسياق لمسلم. ورواه أبو داود والترمذي أيضاً.

(٢) رواه البخاري، فتح الباري: ١١/ ٤٧٧. ورواه مسلم: ٤/٢٠٣٨. ورقمه ٢٦٤٦. والسياق للبخاري.

قال: يوفقه لعمل صالح قبل أن يموت».

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح[(١)].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له بعمل أهل الجنة»[(٢)].

وعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنّة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»[(٣)].

ومما يحسن أن يساق في هٰذا الباب لما فيه من العبرة، قصة الذي أخبر الرسول ﷺ أنه من أهل النار، ففي صحيح البخاري عن أبي حازم عن سهل بن سعد أن رجلاً من أعظم المسلمين غناءً في غزوة غزاها مع النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ فقال: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إلى هٰذا.

فاتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشدِّ الناس على المشركين، حتى جُرح فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه، حتى خرج من بين كتفيه.

فأقبل الرجل إلى الرسول مسرعاً: فقال: أشهد أنك رسول الله.

---

(١) سنن الترمذي: ٤/ ٤٥٠. ورقمه: ٢١٤٢.

(٢) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٤٢ ورقم الحديث: ٢٦٥١.

(٣) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٤٢.

فقال: وما ذاك؟

قال: قلت لفلان من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه، وكان من أعظمنا غناءً عن المسلمين، فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جرح استعجل الموت فقتل نفسه.

فقال النبي ﷺ عند ذلك: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار، وإنه من أهل الجنّة. ويعمل عمل أهل الجنّة، وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»[١].

---

(١) فتح الباري: ١١/٤٩٩ ورقم الحديث: ٦٦٠٧.



الفصل الرابع

حدود نظر العقل في القدر

يقول أبو المُظَفَّر السمْعَاني فيما حكاه عنه ابن حجر العسقلاني: «سبيل المعرفة في هٰذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضلَّ وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب، لأن القدر سِرٌّ من أسرار الله تعالى، اختص العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب»[(١)].

ويقول الطحاوي رحمه الله تعالى: «وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]»[(٢)].

وقال الآجُرِّيُّ: «لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث في القدر، لأن القدر سر من أسرار الله عز وجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٤٧٧. وراجع شرح النووي على مسلم: ١٦/ ١٩٦.

(٢) شرح الطحاوية: ص٢٧٦.

خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به، ثمَّ لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق»[1].

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «من السنة اللازمة: الإيمان بالقدر خيره وشرّه، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها.

ومن لم يعرف تفسير الحديث، ولم يبلغه عقله، فقد كفى ذلك، وأحكم له، فعليه الإيمان به، والتسليم له، مثل حديث الصادق المصدوق، وما كان مثله في القدر»[2].

وقال علي بن المديني مثل قول الإمام أحمد في القدر[3].

وهٰذا الذي قرره أهل العلم في القدر يضع لنا عدَّة قواعد في غاية الأهمية:

الأولى: وجوب الإيمان بالقدر.

الثانية: الاعتماد في معرفة القدر وحدوده وأبعاده على الكتاب والسنة، وترك الاعتماد في ذلك على نظر العقول ومحض القياس. فالعقل الإنساني لا يستطيع بنفسه أن يضع المعالم والركائز التي تنقذه في هٰذا الباب من الانحراف والضلال، والذين خاضوا في هٰذه المسألة بعقولهم ضلوا وتاهوا فمنهم من كذَّب بالقدر، ومنهم من ظن أن الإيمان بالقدر يُلْزِم القول

(١) الشريعة للآجري: ص١٤٩.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ص١٥٧.

(٣) المرجع السابق: ص١٦٥.

بالجبر، ومنهم من ناقض الشرع بالقدر، وكل انحراف من هٰذه الانحرافات سبب مشكلات في واقع البشر وحياتهم ومجتمعاتهم، فالانحراف العقائدي يسبب انحرافاً في السلوك وواقع الحياة.

الثالثة: ترك التعمق في البحث في القدر، فبعض جوانبه لا يمكن للعقل الإنساني مهما كان نبوغه أن يستوعبها، وبعضها الآخر لا يستوعبها إلا بصعوبة كبيرة.

قد يقال: أليس في هٰذا النهج حجر على العقل الإنساني؟ والجواب أن هٰذا ليس بحجر على الفكر الإنساني، بل هو صيانة لهٰذا العقل من أن تتبدد قواه في غير المجال الذي تحسن التفكير فيه، إنه صيانة للعقل الإنساني من العمل في غير المجال الذي يحسنه ويبدع فيه.

إن الإسلام وضع بين يدي الإنسان معالم الإيمان بالقدر، فالإيمان بالقدر يقوم على أن الله علم كلَّ ما هو كائن وكتبه وشاءَه وخلقه، واستيعاب العقل الإنساني لهٰذه الحقائق سهل ميسور، ليس فيه صعوبة، ولا غموض وتعقيد.

أما البحث في سرّ القدر والغوص في أعماقه فإنه يبدد الطاقة العقلية ويهدرها، إنّ البحث في كيفية العلم والكتابة والمشيئة والخلق، بحث في كيفية صفات الله، وكيف تعمل هٰذه الصفات، وهٰذا أمر محجوب علمه عن البشر، وهو غيب يجب الإيمان به، ولا يجوز السؤال عن كنهه، والباحث فيه كالباحث عن كيفية استواء الله على عرشه، يقال له: هٰذه الصفات التي يقوم عليها القدر معناها معلوم، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عن كيفيتها بدعة.

إن السؤال عن الكيفية هو الذي أتعب الباحثين في القدر، وجعل البحث فيه من أعقد الأمور وأصعبها، وأظهر أن الإيمان به صعب المنال، وهو سبب الحيرة التي وقع فيها كثير من الباحثين.

ولذا فقد نصَّ جمع من أهل العلم على المساحة المحذورة التي لا يجوز دخولها في باب القدر، وقد سقنا قريباً مقالة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى التي يقول فيها: «من السُّنة اللازمة الإيمان بالقدر خيره وشرّه والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟»[1].

لقد خاض الباحثون في القدر في كيفية خلق الله لأفعال العباد مع كون هٰذه الأفعال صادرة عن الإنسان حقيقة، وبحثوا عن كيفية علم الله بما العباد عاملون، وكيف يكلف عباده بالعمل مع أنه يعلم ما سيعملون، ويعلم مصيرهم إلى الجنّة أو النار.

وضرب الباحثون في هٰذا كتاب الله بعضه ببعض، وتاهوا وحاروا ولم يصلوا إلى شاطىء السلامة، وقد حذر الرسول ﷺ أمته من أن تسلك هٰذا المسار وتضرب في هٰذه البيداء، ففي سنن الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فقىء في وجنتيه الرمان، فقال: أبهٰذا أمرتم، أم بهٰذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هٰذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»[2].

---

(١) شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ١٥٧.

(٢) صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٢٢٣.

مدى إدراك العقل للعلل والأوامر والأفعال وما فيها من حسن وقبح:

ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف إلى أن لأوامر الله ومخلوقاته عللاً وحِكماً، فإنه لا يأمر إلا لحكمة، ولا يخلق إلا لحكمة.

وبعض هٰذه الحِكم تعود إلى العباد، وبعضها يعود إلى الله تعالى، فما يعود إلى العباد هو ما فيه خيرهم وصلاحهم في العاجل والآجل، وما يعود إلى الله تعالى هو محبته أن يُعبد ويطاع ويتاب إليه ويُرجى ويُخاف منه ويتوكل عليه ويُجاهد في سبيله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

والنصوص الدالة على أن لله حِكماً في خلقه وأمره كثيرة وافرة، يصعب حصرها، والعقول البشرية تستطيع أن تدرك شيئاً من هٰذه الحكم.

وذهب جمهور أهل العلم أيضاً إلى أن العقل يستطيع أن يدرك ما في الأفعال من حسن وقبح، فالعقول تدرك أن الظلم والكذب والسرقة وقتل النفوس قبيح، وأن العدل والصدق وإصلاح ذات البين وإنقاذ الغرقى حسن وجميل.

والحكم الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع:

الأول: أن يكون الفعل مشتملاً على مصلحة أو مفسدة، ولو لم يَرِدْ الشرع بذلك، كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم، والظلم

يشتمل على فسادهم، فهٰذا النوع حسن وقبيح، وقد يعلم بالعقل والشرع حسن ذلك وقبحه، لكن لا يلزم في العقول أن الإنسان معاقب على فعل القبيح من هٰذا النوع في الآخرة إن لم يرد الشرع بذلك، ومن ادعى أن الله يمكن أن يعاقب العباد على أفعالهم القبيحة من الشرك والكفر ونحو ذلك من غير إرسال رسول فقد أخطأ.

الثاني: إذا أمر الشارع بشيء صار حسناً، وإذا نهى عن شيء صار قبيحاً، واكتسب الفعل صفة الحسن والقبح بخطاب الشرع.

الثالث: أن يأمر الشارع بشيء امتحاناً واختباراً كما أمر الله إبراهيم بأن يذبح ولده إسماعيل. فالشارع ليس له قصد في ذبح الابن، ولكنه الابتلاء والاختبار.

والمعتزلة أقرت بالنوع الأول دون الثاني والثالث. والأشعرية ذهبت إلى أن جميع الأوامر والنواهي الشرعية هي من قسم الامتحان، والأفعال ليست لها صفة لا قبل الشرع ولا بالشرع، وأما الحكماء وجمهور أهل العلم فأثبتوا الأقسام الثلاثة[1].

وهٰذا الذي عليه جمهور أهل السنة من أن أفعال الله معللة وأن العقل بإمكانه أن يدرك ما في الأفعال من حسن وقبح، يفتح الباب أمام العقول الإنسانية لتبحث في الحِكَم الباهرة التي خلق الله من أجلها المخلوقات، وشرع من أجلها ما شرعه من أحكام، وهو باب كبير، يحصل العباد منه على علم عظيم، يثبت الإيمان، ويزيد اليقين، ويُعرِّف العباد بإبداع الخالق

---

(١) راجع في تعليل أفعال الله ومسألة التحسين والتقبيح العقلي: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/١٢٢، ٣٠٨، ٤٢٨.

العظيم ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ [السجدة: ٧]، وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد وعد الحق تبارك وتعالى أن يُرِي عباده من آياته العظيمة ما يظهر صدق ما جاء به الرسول، وأنزله في الكتاب ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلۡأٓفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقد جاءت النصوص آمرة بالتدبر والتأمل والنظر في آياته المنزلة، وآياته المخلوقة المبدعة ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤] ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾ [الغاشية: ١٧] ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا * ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴾ [عبس: ٢٤-٢٦].



الفصل الخامس

المذاهب في القدر

صار المسلمون في القدر عدة مذاهب نبينها في المباحث التالية:

المبحث الأول

مذهب المكذبين بالقدر

ذهب بعض الضالين في هٰذا الباب إلى نفي القدر، وزعموا أن الله -تعالى عمّا يقولون- لا يعلم بالأشياء قبل حصولها، ولم يتقدم علمه بها، وقالوا: إنما يعلم الله بالموجودات بعد خلقها وإيجادها.

وزعم هٰؤلاء كذباً وزوراً أن الله إذا أمر العباد ونهاهم لا يعلم من يطيعه منهم ممن يعصيه، ولا يعلم من يدخل الجنّة ممن يدخل النار، حتى إذا استجاب العباد لشرعه أو رفضوا- علم السعداء منهم والأشقياء، ويرفض هٰؤلاء الضلال الإيمان بعلم الله المتقدم، كما يكذبون بأن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السمٰوات والأرض، كما ثبت في الكتاب والسنة.

وقد نشأ القول بهٰذا في آخر عهد الصحابة، فأول من قال به معبد الجهني، ثمَّ تقلد عنه هٰذا المذهب الفاسد رؤوس المعتزلة وأئمتهم كواصل بن عطاء الغزال، وعمرو بن عبيد، ورويت عنهم في هٰذا أقوال

شنيعة فيها تكذيب لله ولرسوله في أن الله علم الأشياء وكتبها قبل خلقها[1].

وقد خشي الرسول ﷺ على أمته هٰذا الضلال الذي وقعت فيه هٰذه الفرقة، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه ابن عساكر عن أبي محجن وابن عبد البر في «الجامع» أن رسول الله ﷺ قال: «أخاف على أمتي من بعدي ثلاثاً: حيف الأئمة، وإيماناً بالنجوم، وتكذيباً بالقدر»[2].

وروى أبو يعلى في مسنده والخطيب في التاريخ وابن عَدِيّ في الكامل بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أخاف على أمتي من بعدي خصلتين: تكذيباً بالقدر، وتصديقاً بالنجوم»[3].

وحذر الرسول ﷺ أمته من هٰذا الضلال، ففي الحديث الذي يرويه الطبراني في معجمه الأوسط، والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أُخِّر الكلام في القدر لشرار أمتي»[4].

وروى الطبراني في معجمه الكبير عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ أمر هٰذه الأمة لا يزال مقارباً حتى يتكلموا في الولدان وفي القدر»[5].

وسمى الرسول ﷺ هٰذا الفريق بمجوس هٰذه الأمة، لأن المجوس يقولون بوجود خالقين اثنين: النور والظلمة، وهٰذا الفريق يقولون بوجود خَالِقين، بل يزعمون أن كلَّ واحد خالق من دون الله، وقد أمر الرسول ﷺ بهجران هٰذا الفريق، فلا يزارون ولا يعادون، ففي الحديث الذي

---

(١) راجع: عقيدة السفاريني: ١/ ٣٠٠، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٥٩.

(٢) صحيح الجامع الصغير: ١/ ١٢٠. ورقم الحديث: ٢١٢.

(٣) صحيح الجامع الصغير: ١/ ١٢٠. ورقم الحديث: ١٢٠.

(٤) صحيح الجامع الصغير: ١/ ١٢٣. ورقم الحديث: ٢٢٤.

(٥) صحيح الجامع الصغير: ٣/ ٧٢. ورقم الحديث: ٣٠٦٠.

يرويه أحمد في مسنده بإسناد حسن عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[١].

وفي حديث آخر يرويه أحمد وأبو داود عن ابن عمر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «القدرية مجوس هٰذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[٢].

وقد صاح الصحابة بأصحاب هٰذه الضلالة من كل ناحية، وأنكروا عليهم ما جاؤوا به من الضلال والباطل، ونهوا الناس عن مخالطة هٰؤلاء ومجالستهم، وأوردوا عليهم النصوص الفاضحة لباطلهم، المقررة للحق في باب القدر.

ففي سنن الترمذي عن نافع أنَّ ابن عمر جاءَه رجل فقال: إنَّ فلاناً يقرأ عليك السلام، فقال له: إنه بلغني أنّه قد أحدث، فإن كان قد أحدث فلا تقرئه مني السلام، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون في هٰذه الأمة أو في أمتي خسف أو مسخ أو قذف في أهل القدر».

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح غريب.

وفي الترمذي عن ابن عمر أيضاً يرفعه: «يكون في أمتي خسف ومسخ وذلك في المكذبين في القدر»[٣].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ٥/ ٣٧. ورقم الحديث: ٥٠٣٩.

(٢) مشكاة المصابيح: ١/ ٣٨ ورقم الحديث: ١٠٧ والذي حققه الشيخ ناصر في تعليقه على المشكاة أن الحديث حسن الإسناد.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٤٥٦. حديث رقم ٢١٥٢، ٢١٥٣.

وفي سنن الترمذي أيضاً عن عبد الواحد بن سليم قال: قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبي رباح فقلت له: يا أبا محمد، إن أهل البصرة يقولون: لا قدر. قال: يا بني، أتقرأ القرآن؟

قلت: نعم.

قال: فاقرأ الزخرف.

قل: فقرأت: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١-٤].

قال: أتدري ما أم الكتاب؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه كتاب كتبه قبل أن يخلق السموات والأرض، فيه أن فرعون من أهل النار، وفيه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

قال عطاء: فلقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول الله ﷺ فسألته ما كانت وصية أبيك عند الموت؟

قال: دعاني أبي فقال لي: يا بني، اتق الله، واعلم أنك لن تتقي الله حتى تؤمن بالله، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره، فإن مت على غير هذا أدخلت النار، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم قال: اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما كان، وما هو كائن إلى الأبد».

قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه[١].

---

(١) سنن الترمذي: ٤/٤٥٧ ورقمه: ٢١٥٥. وانظر صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر الدين الألباني: ٢/٢٢٨.

وقد نصّ الأئمة على كفر هٰذه الطائفة التي لم تقر بعلم الله، وممن نص على كفرهم الأئمة مالك والشافعي وأحمد[١].

وقد تلاشت هٰذه الطائفة التي تكذب بعلم الله السابق أو كادت، يقول السفاريني: «قال العلماء: المنكرون لهٰذا انقرضوا، وهم الذين كفرهم عليه الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد وغيرهم من الأئمة»[٢].

«وقال القرطبي: قد انقرض هٰذا المذهب، فلا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين. وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: القدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم، وواقعة منهم على وجه الاستقلال، وهو مع كونه مذهباً باطلاً أخف من المذهب الأول. قال: والمتأخرون منهم أنكروا تعلق الإرادة بأفعال العباد فراراً من تعلق القديم بالمحدث»[٣].

وقال النووي: «قال أصحاب المقالات من المتكلمين: انقرضت القدرية القائلون بهٰذا القول الشنيع الباطل، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، ولكن يقولون: الخير من الله، والشر من غيره تعالى الله عن قولهم»[٤].

«والقدرية يعترفون بأن الله خلق الإنسان مريداً، لكن يجعلونه مريداً بالقوة والقبول، أي قابلاً لأن يريد هٰذا ويريد هٰذا، وأمّا كونه مريداً لهٰذا

---

(١) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ٢٨٨.
(٢) عقيدة السفاريني: ١/ ٣٠١.
(٣) عقيدة السفاريني: ١/ ٣٠١.
(٤) شرح النووي على مسلم: ١٥/ ١٥٤.

المُعَيَّنِ، وهٰذا المُعَيَّنِ، فهٰذا عندهم ليس مخلوقاً»[1].

«فهٰؤلاء في الحقيقة مجوس ثَـنَـوِيَّـة، بل أعظم منهم، فإن الثَنَوِيَّةَ أثبتوا خالِقَين للكون كله، وهٰؤلاء أثبتوا خالِقين لكل فرد من الأفراد، ولكل فعل من الأفعال، بل جعلوا المخلوقين كلهم خالقين، ولولا تناقضهم لكانوا أكفر من المجوس.

وطرد قولهم ولازمه وحاصله هو إخراج أفعال العباد عن خلق الله -عز وجل- وملكه، وأنها ليست داخلة في ربوبيته عزَّ وجل، وأنه يكون في ملكه ما لا يريد، ويريد ما لا يكون، وأنهم أغنياء عن الله عز وجل، فلا يستعينون على طاعته ولا ترك معصيته، ولا يعوذون بالله من شرور أنفسهم ولا سيئات أعمالهم ولا يستهدونه الصراط المستقيم»[2].

والقدرية بزعمهم أرادوا تنزيه الله وتقديسه عندما زعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكنَّ الكافر هو الذي شاء الكفر، وحجتهم في ذلك أن هٰذا يؤدي إلى الظلم، إذ كيف يشاء الله الكفر من الكافر ثم يعذبه عليه.

ولكنهم -كما يقول شارح الطحاوية- «صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شرٌّ منه، فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه -على قولهم- والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى، وهٰذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل»[3].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/٢٠٦.

(٢) معارج القبول: ٢/٢٥٣.

(٣) شرح الطحاوية: ص ٢٧٧.

ومشيئة الله الكفر من الكافر ليس ظلماً له كما يدعي أهل الظلم من القدرية؛ فلله الحجة البالغة، وله في عباده من الحِكَمِ مالا يعلمه إلا هو تبارك وتعالى.

ففي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدِّيلي، قال: قال لي عمران بن الحصين: «أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجّة عليهم؟

فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم.

قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟

قال: ففزعت فزعاً شديداً. وقلت: كل شيء خَلْق الله ومِلْك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك.

إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجّة عليهم؟

فقال: «لا، بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]»[1].

وفي سنن أبي داود عن ابن الديلمي قال: أتيت أُبي بن كعب، فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من

---

(١) صحيح مسلم: ٤/٢٠٤١، ورقم الحديث: ٢٦٥٠.

قلبي، قال: لو أن الله عذَّب أهل سمواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله، ما تقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هٰذا لدخلت النار.

قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود، فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فقال مثل ذلك[1].

والقدرية بمسلكهم هٰذا جعلوا لأهل الضلال سبيلاً عليهم، فقد ذكر عمر بن الهيثم قال: خرجنا في سفينة، وصحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري للمجوسي: أسلم.

فقال المجوسي: حتى يريد الله.

فقال القدري: إن الله يريد، ولكنّ الشيطان لا يريد.

قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان، هٰذا شيطان قوي. وفي رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما[2].

محاورة أهل السنة للقدرية

ولم يستطع منطق المعتزلة أن يقف في مجال الحجاج مع عوام أهل السنة فضلاً عن علمائهم وأهل الرأي فيهم.

يذكر أهل العلم أن أعرابياً أتى عمرو بن عبيد، فقال له: إن ناقتي

(١) سنن أبي داود: ٤/ ٣١٠. ورقم الحديث: ٣٦٩٩.
(٢) شرح الطحاوية: ٢٧٨.

سُرقت، فادع الله أن يردها عليَّ.

قال عمرو بن عبيد: اللهم إن ناقة هٰذا الفقير سُرقت، ولم تُرِدْ سرقتها، اللهمّ اردها عليه.

فقال الأعرابي: الآن ذهبت ناقتي، وأيست منها.

قال: وكيف؟

قال: لأنه إذا أراد أن لا تُسرق فسرِقت، لم آمن أن يريد رجوعها فلا ترجع، ونهض من عنده منصرفاً[1].

إجابة أبو عصام القسطلاني لقدري

وقال رجل لأبي عصام القسطلاني: أرأيت إن منعني الهدى، وأوردني الضلال ثم عذبني أيكون منصفاً؟

فقال له أبو عصام: إن يكن الهدى شيئاً هو له، فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء[2].

محاورة عبد الجبار الهمداني وأبي إسحاق الإسفراييني

ودخل عبد الجبار الهمداني أحد شيوخ المعتزلة -على الصاحب ابن عباد، وعنده أبو إسحاق الإسفراييني أحد أئمة السنة، فلما رأى الأستاذ قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ص٧٤٠.

(٢) شرح الطحاوية: ص٢٧٨.

فقال الأستاذ فوراً: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال القاضي: أيشاء ربنا أن يُعْصَى؟

فقال الأستاذ: أيُعْصَى ربنا قهراً؟

فقال القاضي: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى عَليَّ بالردى، أحسن إليّ أم أساء؟

فقال الأستاذ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء. فبهت القاضي.

وفي تاريخ الطبري أن غيلان قال لميمون بن مهران بحضرة هشام بن عبد الملك الذي أتى به ليناقشه:

أشاء الله أن يُعصى؟

فقال له ميمون: أفعُصيَ كارهاً؟»[1].

بينَ عمر بن عبد العزيز وغَيْلان الدمشقي

وحاور عمر بن عبد العزيز غيلان الدمشقي أحد رؤوس الاعتزال، فقال له عمر: يا غيلان بلغني أنك تتكلم في القدر.

فقال: يَكْذِبون عليَّ يا أمير المؤمنين.

قال: اقرأ عليَّ سورة «يس».

قال: فقرأ عليه: ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ

---

(١) انظر هاتين القصتين في تعليق محقق شرح الطحاوية ص٢٧٨ وانظر فتح الباري: ١٣/ ٤٥١.

مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩].

قال غيلان: لا والله لكأني يا أمير المؤمنين لم أقرأها قط إلا اليوم. أشهد يا أمير المؤمنين أني تائب من قولي بالقدر.

فقال عمر: اللهم إن كان صادقاً فتب عليه، وإن كان كاذباً فاجعله آية للمؤمنين(١).

قال معاذ بن معاذ: حدثني صاحب لي قال:

«مرَّ التيمي بمنزل ابن عون فحدثه بهٰذا الحديث، قال ابن عون: أنا رأيته مصلوباً بدمشق»(٢).

وقال أبو جعفر الخطمي:

«شهدت عمر بن عبد العزيز وقد دعا غيلان لشيء بلغه في القدر فقال له: ويحك يا غيلان ما هٰذا الذي بلغني عنك؟

قال: يُكْذَبُ عليَّ يا أمير المؤمنين، ويقال عليَّ ما لا أقول.

قال: ما تقول في العلم؟

---

(١) قال محقق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة: هٰذه الرواية رواها الآجري في الشريعة ص٢٢٩ وابن بطة في الإبانة (٢: ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢) قال محقق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة: رواه عبد الله بن أحمد -بدون واسطة بين معاذ وابن عون- في السنة ص١٢٨ وابن بطة -وفيه أن القائل: أنا رأيته . . . هو ابن عوف. الإبانة ٢/ ٣٢٧ قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٧.

قال: نفذ العلم.

قال: أنت مخصوم، اذهب الآن فقل ما شئت.

يا غيلان، إنك إن أقررت بالعلم خصمت، وإن جحدته كفرت، وإنك إن تقر به فتخصم، خير لك من أن تجحد فتكفر.

ثم قال له: أتقرأ (يس)؟

فقال: نعم.

قال: اقرأ.

قال: فقرأ ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ...﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١-٧].

قال: قف. كيف ترى؟

قال: كأني لم أقرأ هٰذه الآية يا أمير المؤمنين.

قال: زد.

فقرأ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٨-٩].

فقال له عمر: قل ﴿سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٩-١٠].

قال: كيف ترى؟

قال: كأني لم أقرأ هٰذه الآيات قط، وإني أعاهد الله أن لا أتكلم في شيء مما كنت أتكلم فيه أبداً.

قال: اذهب. فلما ولّى قال: اللهم إن كان كاذباً بما قال فأذقه حر السلاح.

قال: فلم يتكلم زمن عمر، فلما كان يزيد بن عبد الملك كان رجلاً لا يهتم بهٰذا ولا ينظر فيه.

قال: فتكلم غيلان.

فلما ولي هشام أرسل إليه فقال له: أليس قد كنت عاهدت الله لعمر لا تتكلم في شيء من هٰذا أبداً؟

قال: أقلني، فوالله لا أعود.

قال: لا أقالني الله إن أقلتك، هل تقرأ فاتحة الكتاب؟

قال: نعم.

قال: اقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢-٥].

قال: قف. على ما استعنته؟ على أمر بيده لا تستطيعه، أو على أمر في يدك أو بيدك؟

اذهبا فاقطعا يديه ورجليه واضربا عنقه واصلباه[(١)(٢)].

والقدرية النفاة حُرموا الاستعانة بالله الواحد الأحد، لأنهم زعموا أن الله

---

(١) قال محقق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة: رواه عبد الله بن أحمد -المذكور في السند- في السنة ص١٢٧-١٢٨.

(٢) شرح اعتقاد أصول أهل السنة: ٧١٣ - ٧١٥.

لا يقدر على أفعال العباد، وأن العبد هو الخالق لفعله، فكيف يستعينون بالله على مالا يقدر عليه.

وهؤلاء يعتمدون فيما يفعلون على حولهم وقوتهم وعملهم، وهم يطلبون الجزاء والأجر من الله كما يطلب الأجير أجره من مستأجره، والله ليس محتاجاً إلى العباد وأعمالهم، بل نفع ذلك عائد إلى العباد أنفسهم، ومع كون العباد هم المحتاجين إلى الأعمال، فلا غنى لهم عن الاستعانة بالله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

شبهات وأجوبتها

١- معنى المحو والإثبات في الصحف، وزيادة الأجل ونقصانه:

قد يشكل على بعض الناس مواضع في كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ، فيقول بعضهم: إذا كان الله علم كل ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده في كتاب فما معنى قوله: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩].

وإذا كانت الأرزاق والأعمال والآجال مكتوبة لا تزيد ولا تنقص فما توجيهكم لقوله ﷺ: «من سرَّه أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه».

وكيف تفسرون قول نوح لقومه: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۞ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٣-٤].

وما قولكم في الحديث الذي فيه أن الله جعل عمر داود عليه السلام مائة سنة بعد أن كان أربعين سنة.

والجواب أن الأرزاق والأعمار نوعان:

نوع جرى به القدر وكتب في أم الكتاب، فهٰذا لا يتغير ولا يتبدل، ونوع أعلم الله به ملائكته فهٰذا هو الذي يزيد وينقص، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]. وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي قدر الله فيه الأمور على ما هي عليه.

ففي كتب الملائكة يزيد العمر وينقص، وكذلك الرزق بحسب الأسباب، فإن الملائكة يكتبون له رزقاً وأجلاً، فإذا وصل رحمه زيد له في الرزق والأجل، وإلا فإنه ينقص له منهما[١].

«والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيد، فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعبده أجلاً، فإن وصل رحمه، فيأمره بأن يزيده في أجله ورزقه. والملك لا يعلم أيزاد له في ذلك أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لم يتقدم ولم يتأخر»[٢].

يقول ابن حجر العسقلاني: «الذي سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل، والذي يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما في علم الحفظة والموكلين بالآدمي، فيقع فيه المحو والإثبات، كالزيادة في العمر والنقص، وأما ما في علم الله فلا محو فيه ولا إثبات والعلم عند الله»[٣].

---

(١) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ٥٤٠.
(٢) راجع المصدر السابق: ٨/٥١٧.
(٣) فتح الباري: ١١/ ٤٨٨.

٢- التوفيق بين تقدير الأقدار وبين «كل مولود يولد على الفطرة»:

وقد يقول بعض الناس كيف يكون الله قدر كل شيء مع أنه صح عن رسولنا أن كل مولود يولد على الفطرة؟

فالجواب أنه لا تناقض ولا تعارض بين النصوص المبينة أن كل شيء بقدر، والنصوص المخبرة بأن كل مولود يولد على الفطرة.

فالله فطر عباده على السلامة من الاعتقادات الباطلة كما فطرهم على قبول العقائد الصحيحة، ثمَّ إذا ولدوا أحاطت بهم شياطين الإنس والجن، فأفسدت فطرهم وغيَّرتها، وثبَّت الله من شاء هدايته على الحق.

والله يعلم من يثبت على الفطرة السويّة السليمة، ومن تتغير فطرته، علم ذلك في الأزل وكتبه، فلا منافاة بين هٰذه النصوص ولا تعارض بينها، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن الله: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً».

والله يعلم من الذي تجتالُه الشياطين وتغرر به، ويعلم من يثبت على الحق، ويهدى للصواب.

وإذا عرفت هٰذا الذي بيناه علمت كيف تُوَجَّه قوله ﷺ: «خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمّه مؤمناً، وخلق فرعون في بطن أمه كافراً». رواه ابن عدي في الكامل، والطبراني في الأوسط[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ٣/ ١١٣ ورقم الحديث: ٣٢٣٢.

٣- إذا كانت الأمور مقدرة فما معنى قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾:

وقد يحتج بعض الناس للقدرية النفاة بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ويظنون أن المراد بالحسنات والسيئات في هٰذه الآية الطاعات والمعاصي.

وهٰؤلاء أخطؤوا الفهم، فالمراد بالحسنات هنا النعم، والمراد بالسيئات المصائب، يدلنا على صحة هٰذا الفقه سياق النص. قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۞ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩].

فالله يحكي عن المنافقين أنهم كانوا إذا أصابتهم حسنة مثل الرزق والنصر والعافية، قالوا: هٰذه من الله، وإذا أصابتهم سيئة -مثل ضَرْب ومرض وخوف من عدو- قالوا: هٰذه من عندك يا محمد. أنت الذي جئت بهٰذا الدين الذي عادانا الناس لأجله، وابتلينا لأجله بهٰذه المصائب.

فالحسنات هنا النعم، والسيئات المصائب، وهٰذه كقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

ثم قرر الحق أن المصائب والنعم لا تخرج عن قدر الله ومشيئته ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

ثم بين الحق تبارك وتعالى أن السيئات التي هي المصائب ليس لها سبب إذا أذنب العبد إلا من نفسه، وأما ما يصيب العبد من الخير فلا تنحصر أسبابه، لأنه من فضل الله، يحصل بعمل العبد وبغير عمله من إنعام الله عليه، فالواجب على العباد أن يشكروا ربهم ويحمدوه على ما أنعم به عليهم، كما يجب أن يكثروا من التوبة والأوبة والاستغفار مما اقترفوه من ذنوب سببت لهم المصائب والبلايا.

وإذا أنت تأملت في قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ . . .﴾ ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ علمت أن الحسنة والسيئة هي فعل الله بالعباد التي هي المصائب والنعم، أما قوله ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي بسبب ذنوب العبد وخطاياه، وهٰذا وإن كان مقدراً إلا أن الله قدر أن تكون المصيبة بسبب الذنب.

أما الحسنات والسيئات التي هي أفعال العباد فلا يقال فيها: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ وإنما يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤]. وإنما قال هنا: ﴿جَآءَ﴾ لأن الحسنة فعل الجائي، ولذلك صرح بهٰذا في جانب الذنوب والمعاصي: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤][1].

٤- كيف يخلق الله الشرَّ ويقدره؟

وقد يشاغب بعض القدرية فيقولون: إنَّ الله مقدس عن فعل الشر، وإن الواجب على العباد أن ينزهوا ربهم عن الشر وفعله، وهٰؤلاء خلطوا حقاً

(١) راجع في هٰذا المبحث: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١١٠، ٢٢٤.

بباطل فالتبست عليهم الأمور.

وجواب هٰذه الشبهة أن الله تعالى لا يخلق الشرَّ المحض الذي لا خير فيه، ولا منفعة فيه لأحد، وليس له فيه حِكْمَة ولا رحمة، ولا يعذب الناس بلا ذنب، وقد بين العلماء أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما ما في خلق إبليس والحشرات والكواسر من الحكمة والرحمة.

فالشيء الواحد يكون خلقه باعتبار خيراً، وباعتبار آخر شراً، فالله خلق إبليس يبتلي به عباده، فمنهم من يمقته، ويحاربه ويحارب منهجه، ويعاديه ويعادي أولياءَه، ويوالي الرحمٰن ويخضع له، ومنهم من يواليه ويتبع خطواته.

المبحث الثاني

التاركون للعمل اتكالاً على القدر

ضل فريق آخر في باب القدر فقالوا: إذا كان الله عالماً بكل شيء نفعله، وعالماً بمصيرنا إلى الجنة أو النار، وكان هو الخالق لأفعالنا، فلماذا نعمل ونتصب؟ ولماذا لا نترك الأقدار تجري في أَعِنَّتِهَا، وسيأتينا ما قدر لنا شئنا أم أبينا.

وقد تَعَمَّقَتْ هٰذه الضلالة عند طوائف من العُبَّاد والزهاد وأهل التصوف، ولم تقله طائفة واحدة بعينها من طوائف أهل المقالات، وكان ولا يزال هٰذا القول على ألسنة كثير من جهال المسلمين وأهل الزيغ والزندقة[1].

وهٰذا الفريق يؤمن بالقدر، وأن الله عالم بكل شيء، وخالق لكل شيء، ومريد لجميع الكائنات، ولكنهم زعموا أن كل ما خلقه الله وشاءه فقد رضيه وأحبّه، وزعموا أنه لا حاجة بالعباد إلى العمل والأخذ بالأسباب، فما قُدِّر لهم سيأتيهم، وزعموا أن العباد مجبورون على أفعالهم، فالإنسان عندهم ليس له قدرة تؤثر في الفعل، بل هو مع القدر كالريشة في مهب الريح، وكالساقط من قمة جبل شامخ إلى واد بعيد غورُه، سحيق قَعرُه، لا يملك وهو يتردى فيه من أمره شيئاً.

لقد ترك هٰؤلاء العمل احتجاجاً بالقدر قبل وقوعه، واحتجوا بالقدر

---

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/٥٩، ٩٩، ٢٥٦.

على ما يقع منهم من أعمال مخالفة للشرع، ووصل بهم الحال إلى عدم التفريق بين الكفر والإيمان، وأهل الهدى والضلال، لأن جميع ذلك خلق الله، فلم التفريق؟

إن هٰذه العقيدة المنحرفة أضلت عقولاً كثيرة وانحرف مسارها عن جادة الحق والصواب، فاضطربت عندها موازين العدل والحق، وعطلت هٰذه العقيدة المنحرفة طاقات هائلة في العالم الإسلامي، أقعدتها عن العمل، بل جيِّرت أعمالها لمصلحة أعداء الإسلام في بعض الأحيان.

لقد كان من آثار هٰذه العقيدة الزعم بأن الله أحب الكفر والشرك والقتل والزنا والسرقة وعقوق الوالدين وغير ذلك من الذنوب والمعاصي، لأنهم يزعمون أن كل شيء خلقه الله وأوجده فهو يحبه ويرضاه.

ومن آثارها أن أصحابها تركوا الأعمال الصالحة الخيرة التي توصلهم إلى الجنّة وتنجيهم من النار، وارتكبوا كثيراً من الموبقات بدعوى أن القدر آت آت، وكل ما قدر للعبد سيصيبه، فلماذا العمل والتعب والنصب.

لقد ترك هٰؤلاء الأخذ بالأسباب، فتركوا الصلاة والصيام، كما تركوا الدعاء والاستعانة بالله والتوكل عليه، لأنه لا فائدة منها، فالذي يريده الله ماض قادم لا ينفع معه دعاء ولا عمل.

ورضي كثير من هٰؤلاء بظلم الظالمين وإفساد المفسدين، لأن ما يفعلونه قدر الله وإرادته.

وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يهتموا بإقامة الحدود والقصاص، لأن ما وقع من المفاسد والجرائم مقدر لا بدَّ منه.

وقد عرض شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- لهٰذا الفريق ومعتقده

وحاله في مواضع من كتبه، فقال: «الذين اعترفوا بالقضاء والقدر، وزعموا أن ذلك يوافق الأمر والنهي، فهٰؤلاء يؤول أمرهم إلى تعطيل الشرائع والأمر والنهي، مع الاعتراف بالربوبية العامة لكل مخلوق، وأنه ما من دابة إلا ربي آخذ بناصيتها، وهٰذا هو الذي يُبتلى به كثيراً -إمّا اعتقاداً وإما حالاً- طوائف من الصوفية والفقراء، حتى يخرج من يخرج منهم إلى الإباحة للمحرمات، وإسقاط الواجبات، ورفع العقوبات»(١).

وقال أيضاً فيهم: «هٰؤلاء رأوا أن الله خالق المخلوقات كلها، فهو خالق أفعال العباد، ومريد الكائنات، ولم يميزوا بعد ذلك بين إيمان وكفر، ولا عرفان ولا نكر، ولا حق ولا باطل، ولا مهتدي ولا ضال، ولا راشد ولا غوي، ولا نبي ولا متنبىء، ولا ولي لله ولا عدو، ولا مرضي لله ولا مسخوط، ولا محبوب لله ولا ممقوت، ولا بين العدل والظلم، ولا بين البر والعقوق، ولا بين أعمال أهل الجنّة وأعمال أهل النار، ولا بين الأبرار والفجار، حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق والمشيئة النافذة والقدرة الشاملة والخلق العام، فشهدوا المشترك بين المخلوقات، وعموا عن الفارق بينهما»(٢).

«وقد يغلو أصحاب هٰذا الطريق حتى يجعلوا عين الموجودات هي الله، ويمسكون بموافقة الإرادة القدرية في السيئات الواقعة منهم، كقول الحريري: أنا كافر برب يعصى، وقول ابن إسرائيل:

أصبحت منفعلاً لما يختاره   مني ففعلي كله طاعات

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٥٦.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٦٠.

وقد يسمون هٰذا حقيقة باعتبار أنه حقيقة الربوبية»[1].

وعرض ابن القيم لهٰذه الفرقة وضلالاتها في كتابه القيم «شفاء العليل» فقال: «ثمَّ نبغت طائفة أخرى زعمت أن حركة الإنسان الاختيارية -ولا اختيار- كحركة الأشجار عند هبوب الرياح، وكحركات الأمواج، وأنه على الطاعة مجبور، وأنه غير ميسر لما خلق له، بل هو عليه مجبور ومقصور.

ثم تلاهم أتباعهم على آثارهم مقتدين، ولمنهاجهم مقتفين، فقرروا هٰذا المذهب وانتموا إليه، وحققوه، وزادوا عليه أن تكاليف الرب تعالى لعباده كلها تكليف مالا يطاق، وأنها في الحقيقة كتكليف المقعد أن يرقى إلى السبع الطباق، فالتكليف بالإيمان وشرائعه تكليف بما ليس من فعل العبد، ولا هو بمقدوره، وإنما هو تكليف بفعل من هو منفرد بالخلق، وهو على كل شيء قدير، فكلف عباده بأفعاله، وليسوا عليها قادرين، ثم عاقبهم عليها، وليسوا في الحقيقة لها فاعلين.

ثمَّ تلاهم على آثارهم محققوهم من العُبَّاد، فقالوا: ليس في الكون معصية البتَّة، إذ الفاعل مطيع للإرادة موافق للمراد، كما قيل:

أصبحت منفعلاً لما يختاره ... مني ففعلي كله طاعات

ولاموا بعض هٰؤلاء على فعله فقال: إن كنت عصيت أمره، فقد أطعت إرادته، ومطيع الإرادة غير ملوم، وهو في الحقيقة غير مذموم، وقرر محققوهم من المتكلمين في هٰذا المذهب بأن الإرادة والمشيئة والمحبة في حق الرب سبحانه هي واحدة، فمحبته هي نفس مشيئته، وكل ما في

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٥٧.

الكون فقد أراده وشاءه، وكل ما شاءه فقد أحبه.

... ولقد ظنت هٰذه الفرقة بالله أسوأ الظنون، ونسبته إلى أقبح الظلم، وقالوا: إن أوامر الرب ونواهيه كتكليف العبد أن يرقى فوق السمٰوات، وكتكليف الميت إحياء الأموات، والله يعذب عباده أشدَّ التعذيب على فعل مالا يقدرون على تركه، وعلى ترك مالا يقدرون على فعله، بل يعاقبهم على نفس فعله الذي هو لهم غير مقدور، وليس أحد ميسر له، بل هو عليه مقهور، ونرى العارف منهم ينشد مترنماً، ومن ربّه متشكياً ومتظلماً:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء»[1]

وقد تنبه ابن القيم إلى أن هٰذا الصنف من البشر قصدوا «تحميل ذنوبهم على الأقدار، وتبريئها من الذنوب والأوزار، وقالوا إنها في الحقيقة فعل الخلاق العليم»[2].

وتنبه المقدم لكتاب «الشفاء» إلى أن هٰذا السبب هو الذي جعل «الاتجاه السائد في كل العصور هو الجبر» فقال: «عقيدة الجبر تحمل عن الإنسان تبعاته، وتضع عنه أوزار ما اقترف من الإثم، وتلقي التبعة على القوة التي حركت إرادة الإنسان، ودفعت رغبته وقادته في تصرفاته، فكاد السواد الأعظم من الناس يدين بالجبر، فمن كان وثنياً اعتقد بأن أمره بيد الآلهة التي يعبدها، يلقي التبعة على الدهر، ويعتقد أن المرء طوع تقلب الحدثان.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم: ص١٥، ١٦.

(٢) شفاء العليل: ص١٦.

ومن يقول أنه مؤمن بالله يعتقد أن الأقدار تُسيِّره كيف تشاء، وأنه مسلوب الإرادة عديم الاختيار، حتى اتخذ هٰذا البحث مظهراً جديداً في العصور الحديثة، حيث قال المجبرة منهم: إن إرادة الإنسان مقيدة بالغرائز والوراثة والبيئة، وليس للإنسان يد في إحداث هٰذه الأمور، وإذن فليس له اختيار فيما يقترف من ذنب وإثم، لأن الإرادة لا أثر لها في البواعث النفسية، بل هي ثمرة هٰذه البواعث، وهي خاضعة لمؤثرات نفسية أو خارجية خضوعاً لا محيص عنه.

ولما انتشرت فكرة الجبر بين المسلمين في العصور المتأخرة عن طريق الطرق الزائغة والمتصوفة أضرَّت ضرراً عظيماً، سيما مع ترك الأسباب. قال بعضهم:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غيابته الجنين[1]»

ومقالة هٰذا الفريق تؤدي إلى الكفر بالله، والتكذيب بما جاء في كتبه، وأخبرت به رسله، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى:

«فمن أثبت القدر واحتج به على إبطال الأمر والنهي فهو شر ممن أثبت الأمر والنهي، ولم يثبت القدر، وهٰذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل بين جميع الخلق، فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات، ولم يفرق بين المأمور والمحظور والمؤمنين والكفار، وأهل الطاعة وأهل المعصية لم يؤمن بأحد من الرسل، ولا بشيء من الكتب، وكان عنده آدم وإبليس سواء، ونوح وقومه سواء،

---

(١) شفاء العليل: ص ٥.

وموسى وفرعون سواء، والسابقون الأولون والكفار سواء»[1].

وقال فيهم أيضاً: «من يقر بتقدم علم الله وكتابه، ولكن يزعم أن ذلك يغني عن الأمر والنهي والعمل، وأنه لا يحتاج إلى العمل، بل من قضى بالسعادة دخل الجنة، بلا عمل أصلاً، ومن قضى بالشقاوة شقي بلا عمل، فهٰؤلاء أكفر من أولئك (يعني المكذبين بالقدر) وأضل سبيلاً، ومضمون قول هٰؤلاء تعطيل الأمر والنهي، والحلال والحرام، والوعد والوعيد، وهٰؤلاء أكفر من اليهود والنصارى بكثير»[2].

وقال أيضاً: «هٰؤلاء القوم إذا أصروا على هٰذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى، فإن اليهود والنصارى يؤمنون بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، لكن حرفوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض»[3].

الرد على القدرية الجبرية

والرد على ضلال هٰذه الفرقة من وجوه:

الأول: خطؤهم في إطلاق اسم الجبر على ما يؤديه الإنسان من أفعال:

استعمل هٰؤلاء لفظاً لم يرد به الكتاب والسنة، والواجب على العباد أن يستخدموا الألفاظ التي جاءت بها النصوص، روى اللالكائي بإسناده إلى

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٠٠.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٨٨.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٦٢.

بقية قال: سألت الأوزاعي والزبيدي عن الجبر؟

فقال الزبيدي: أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر ويقهر، ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحب.

وقال الأوزاعي: ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن والسنة فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل، فهٰذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ»[١].

وورد مثل هٰذه الأقوال عن جمع من علماء السلف مثل سفيان الثوري وأبي إسحاق الفزاري وغيرهم[٢].

وإنما أنكروا إطلاق القول بأن الإنسان مجبر على فعله، لأن لفظ (الجبر) مجمل، فقد يراد بالإجبار معنى الإكراه كقولك: أجبر الأب ابنته على النكاح، وجبر الحاكم الرجل على بيع ماله لوفاء دينه، ومعنى الإجبار هنا الإكراه، فيكون معنى قولهم: أجبر الله العباد، أي: أكرههم، لا أنه جعلهم مريدين لأفعالهم مختارين لها عن حبٍّ ورضا.

وإطلاق هٰذا على الله -تبارك وتعالى- خطأ بين، «فإن الله أعلى وأجل من أن يجبر أحداً، وإنما يجبر غيره العاجز عن أن يجعله مريداً للفعل مختاراً له محباً له راضياً به، والله سبحانه قادر على ذلك، فهو الذي جعل المريد للفعل المحب له الراضي به مريداً له محباً له راضياً به، فكيف يقال أجبره وأكرهه، كما يجبر المخلوق المخلوق»[٣].

---

(١) شرح اعتقاد أصول أهل السنة: ص٧٠٠ مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٠٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١٣٢، ٢٩٤، ٤٦١.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٦٣.

وأما إطلاق الجبر مراداً به أن الله جعل العباد مريدين لما يشاء منهم مختارين له من غير إكراه فهٰذا صحيح، وقال بعض السلف في معنى الجبار: هو الذي جبر العباد على ما أراد[1].

ولما كان لفظ الجبر لفظ مجمل يطلق على هٰذا وهٰذا منع السلف من إطلاقه نفياً أو إثباتاً.

ذكر شيخ الإسلام عن أبي بكر الخلال في كتابه (السنة) أن المروذي قال للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، رجل يقول إن الله أجبر العباد، فقال: هٰكذا لا نقول، وأنكر ذلك، وقال: يُضلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء.

وذكر عن المروذي أن رجلاً قال: إن الله لم يجبر العباد على المعاصي، فرد عليه آخر، فقال: إن الله جبر العباد، أراد بذلك إثبات القدر، فسألوا عن ذلك أحمد بن حنبل، فأنكر عليهما جميعاً على الذي قال جَبَر، وعلى الذي قال لم يجبر حتى تاب، وأمره أن يقول: يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

وذكر عن أبي إسحاق الفزاري قال: جاءني الأوزاعي فقال: أتاني رجلان فسألاني عن القدر، فأحببت أن آتيك بهما تسمع كلامهما وتجيبهما.

قلت: رحمك الله، أنت أولى بالجواب.

قال: فأتاني الأوزاعي ومعه الرجلان، فقال: تكلما.

فقالا: قدم علينا ناس من أهل القدر، فنازعونا في القدر ونازعناهم

---

(١) راجع: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٦٤.

فيه، حتى بلغ بنا وبهم إلى أن قلنا: إن الله جبرنا على ما نهانا عنه، وحال بيننا وبين ما أمرنا به، ورزقنا ما حرَّم علينا.

فقلت: يا هٰؤلاء، إن الذين أتوكم بما أتوكم به قد ابتدعوا بدعة، وأحدثوا حدثاً، وإني أراكم قد خرجتم من البدعة إلى مثل ما خرجوا إليه.

فقال الأوزاعي: أصبت وأحسنت يا أبا إسحاق»[1].

الثاني: إنكار الاختيار في أفعال العباد نقص في العقل:

الذين يزعمون أن الإنسان ليس له إرادة يفعل بها ألغوا عقولهم، فضلوا وأضلوا، وإلاّ فإننا نعلم من أنفسنا أن حركتنا ليست كحركة الجماد، الذي لا يملك شيئاً لذاته في تحركه وسكونه.

بل إننا نفرق بين الحركات غير الإرادية التي تجري في أجسادنا وبين الحركات الإرادية، فحركة القلب، وحركة الرئتين، وجريان الدم في دورته في عروق الإنسان، وآلاف العمليات المعقدة التي تجري في أجسادنا -من غير أن نعرفها ونعلم بها- ليس لنا فيها خيار، بل هي حركات اضطرارية ليس للإنسان إرادة في إيجادها وتحقيقها، ومثل ذلك حركة المرعوش الذي لا يملك إيقاف اهتزاز يده.

أما أكل الإنسان وشربه وركوبه، وبيعه وشراؤه، وقعوده وقيامه، وزواجه وطلاقه، ونحو ذلك فهو يتم بإرادة وقدرة ومشيئة، والذين يسلبون الإنسان هٰذه القدرة ضلت عقولهم، واختلفت عندهم الموازين.

والقرآن مليء بإسناد الأفعال إلى من قاموا بها كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنَ

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٠٣.

أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [يــس: ٢٠] ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات: ١٠٣] ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص: ١٥] ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٩] والنصوص في هٰذا كثيرة يصعب إحصاؤها تسند الأفعال إلى من قاموا بها.

الوجه الثالث: زعمهم أن كل شيء قدره الله وخلقه فقد رضيه وأحبه:

وهٰذا زعم باطل، فالله شاء وجود الكفر والشرك والذنوب والمعاصي من الزنا والسرقة وعقوق الوالدين والكذب وقول الزور، وأكل مال الناس بالباطل، ولكنه كرهها وأبغضها ونهى عباده عنها.

قال ابن القيم: «أخبرني شيخ الإسلام -قدس الله روحه- أنه لام بعض هٰذه الطائفة على محبة ما يبغض الله ورسوله.

فقال له الملوم: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، وجميع ما في الكون مراده، فأي شيء أُبغضُ منه؟

فقال له الشيخ: إذا كان الله قد سخط على أقوام ولعنهم وغضب عليهم وذمهم، فواليتهم أنت وأحببت أفعالهم ورضيتها، تكون موالياً له أو معادياً له؟

قال: فبهت الجبري ولم ينطق بكلمة»[1].

وسيأتي مزيد بحث في هٰذه المسألة عند الحديث عن الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

---

(١) شفاء العليل: ص١٦.

الوجه الرابع: زعمهم أن الإيمان بالقدر يقضي بترك الأعمال وإهمال الأسباب:

لقد أخطأ هٰذا الفريق في دعواه أن الإيمان بالقدر لا يحتاج العبد معه إلى العمل، وذهل هٰؤلاء عن حقيقة القدر، فالله قدَّر النتائج وأسبابها، ولم يقدر المسببات من غير أسباب، فمن زعم أن الله قدر النتائج والمسببات من غير مقدماتها وأسبابها فقد أعظم على الله الفرية.

فالله إذا قدَّر أن يرزق فلاناً رزقاً فقد جعل لذلك الرزق أسباباً ينال بها، فمن ادعى أن لا حاجة به إلى السعي في طلب الرزق وأنَّ ما قدر له من رزق سوف يأتيه سعى أو لم يسع لم يفقه قدر الله في عباده.

وإذا قدر الله أن يرزق فلاناً ولداً، فإنه يكون قدر له أن يتزوج ويعاشر زوجه، فالأسباب هي من الأقدار.

والله يقدر أن فلاناً يدخل الجنة، ويقدر مع ذلك أن هٰذا الإنسان يؤمن ويعمل الصالحات، ويستقيم على أمر الله، ويقدر أن فلاناً يكون من أهل النار، ويقدر أسباب ذلك من تركه الإيمان والأعمال الصالحة.

ويقدر أن فلاناً يمرض فيتناول الدواء فيشفى، فالله قدر المرض، وقدر السبب الذي يزيل المرض ويحقق الشفاء.

والله يقدر أن فلاناً يدعوه ويستغيث به، فيجيب دعاءَه ويقبل رجاءَه، ويقدر أن فلاناً لا يدعوه ولا يرجوه، فيكله إلى نفسه، ويبقيه في تعسه، فالله قدر المسببات وقدر أسبابها، ومن زعم أن المسبب يقع من غير سبب فإنه لم يفقه دين الله، ولم يعرف قدر الله، وهو كمن يزعم أن الولد يأتي

من غير سبب، وأن الزرع يحصل من غير ماء ولا تراب، وأن الشبع يحدث من غير طعام، والري يكون من غير تناول شراب.

والنصوص الدالة على هٰذا الذي شرحناه وبيناه كثيرة وافرة.

ونصوص الكتاب والسنة حافلة بالأمر باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شؤون الحياة، فقد أمرت بالعمل والسعي في طلب الرزق، واتخاذ العدة لمواجهة الأعداء، والتزود للأسفار.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] وقال: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] وقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وأمر المسافرين للحج بالتزود ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] وأمر بالدعاء والاستعانة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وأمر باتخاذ الأسباب الشرعية التي تؤدي إلى رضوانه وجنته كالصلاة والصيام والزكاة والحج.

وحياة الرسول ﷺ وأصحابه، بل حياة المرسلين جميعاً والسائرين على نهجهم كلها شاهدة على أخذهم بالأسباب، والجد والاجتهاد في الأعمال.

إن الأخذ بالأسباب هو من قدر الله تبارك وتعالى، وليس مناقضاً للقدر ولا منافياً له.

وقد فقَّه الرسول ﷺ أصحابه بمعنى القَدَر، وأنه لا يُوجِبُ ترك العمل،

بل يوجب الجد والاجتهاد فيه لبلوغ ما يطمح الإنسان في نيله وتحقيقه، فقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن فائدة العمل إذا كانت الأعمال مقدرة مقضية جفَّ بها القلم، وفرغ منها رب العالمين، فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» وقرأ عليه السلام: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥-١٠].

وقال بعض الصحابة الذين فقهوا عن الله ورسوله مراده لما سمع أحاديث القدر: «ما كنت بأشدّ اجتهاداً مني الآن».

إن الذي يفقه عن الله مراده في القدر يعلم أن القدر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال، بل يدفع إلى الجد والاجتهاد والحرص على تحصيل ما ينفعه في الدنيا والآخرة.

إلا أنه يجب التنبه إلى أن العبد وإن أَخَذَ بالأسباب فإنه لا يجوز أن يعتمد عليها، ويتوكل عليها، بل يجب أن يتوكل على خالقها ومنشئها.

وقد قال علماؤنا: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع.

وبيان ذلك: أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه، وليس في المخلوقات ما يستحق هٰذا، لأنه ليس مستقلاً، ولا بدَّ له من شركاء وأضداد، ومع هٰذا كله فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر، وهٰذا مما يبين أن الله ربُّ كل شيء ومليكه، وأن

السمٰوات والأرض وما بينهما والأفلاك وما حوته لها خالق مدبر غيرها، وذلك أن كل ما يصدر عن فلك أو كوكب أو ملك أو غير ذلك، فإنك تجده ليس مستقلاً بإحداث شيء من الحوادث، بل لا بدَّ له من مشارك ومعاون، وهو مع ذلك له معارضات وممانعات»[1].

«فكل سبب له شريك وله ضد، فإن لم يعاونه شريكه، ولم يُصرف عنه ضده لم يحصل سببه، فالمطر وحده لا ينبت إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثمَّ الزرع لا يتمُّ حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جعل في البدن من الأعضاء والقوى ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تصرف المفسدات»[2].

والعقلاء من البشر يعلمون أنهم لا يستقلون بفعل ما يريدون، فكثير منهم تتهيأ له الأسباب، ثم يحال بينه وبين ما يشتهي وما يريد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

يذكر اللالكائي أن رجلاً طلب من جاريته أن تسقيه، فجاءته بقدح من زجاج، فصبت له ماء، فوضعه على راحته، ثم رفعه إلى فيه، ثم قال: يزعم ناس أني لا أستطيع أن أشرب هٰذا، ثم قال: هي حرة إن لم أشربه (يعني جاريته التي صبت الماء).

فما كان من الجارية إلا أن ضربت القَدَح بِرِدْن قميصه، فوقع القدَح وانكسر وأهراق الماء[3].

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ١٧٠.

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ١٦٧.

(٣) شرح أصول أهل السنة: ٧٢٧.

وهٰكذا أثبتت هٰذه الجارية لهٰذا المسكين أنه لا يقدر على كل ما يريد مالم يقدره الله، فلقنته درساً، وحررت نفسها من رق العبودية.

وكم من ثري أو قوي أو مُقدّم قوم ظن أن الدنيا خضعت له وأعطته زمامها، وجد نفسه عاجزاً لا يستطيع أن يفعل شيئاً، قد يقعده عن فعل ما يشتهي عدو طاغ، أو مرضٌ مُقْعِدٌ، أو خيانة صديق. أو طمع محب ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤].

الوجه الخامس: احتجاجهم بالقدر:

وهٰؤلاء يحتجون بالقدر على ترك العمل، فتجد الواحد عندما يدعى إلى الصلاة والصيام وقراءة القرآن يقول: لو شاء الله لي أن أعمل هٰذا عملته، كما يحتجون به على ما يوقعونه بالناس من الظلم والفساد، أو ما يقع من ظلم وفساد، فيقولون في المظالم والمناكر والمفاسد التي تقع: هٰذه إرادة الله ومشيئته وليس لنا حيلة في ذلك، وقد أدى هٰذا بهم إلى ترك الباطل يستشري في ديار الإسلام.

وترى هٰذا الصنف من البشر خاضعين للظلمة، بل إن بعضاً منهم يصبح أعواناً للظلمة، وتراهم يخاطبون الناس قائلين: ليس لكم إلا أن تصبروا على مشيئة الله وقدره فيكم. وترى بعض هٰؤلاء يفعلون الموبقات ويرتكبون المنكرات من الزنا والفسوق والعصيان ويحتجون لأفعالهم بالقدر.

وهٰؤلاء إن اعتقدوا أن كل شيء واقع فهو حجّة أضحكوا العقلاء منهم، وأوقعوا أنفسهم في مأزق لا يجدون منه خلاصاً، وابن القيم يذكر وقائع

من هٰؤلاء تزري بأصحاب العقول، وتجعل أصحابها في مرتبة أقل من البهائم، يذكر عن واحد من هٰؤلاء أنه رأى غلامه يفجر بجاريته، فلما أراد معاقبتهما، وكان غلامه يعرف مذهبه في القدر، فقال له: إن القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك.

فقال له ذلك الجاهل: لَعِلْمُكَ بالقضاء والقدر أحب إليَّ من كلّ شيء، أنت حرّ لوجه الله.

ورأى آخر رجلاً يفجر بزوجته، فأقبل يضربها وهي تقول: القضاء والقدر، فقال: يا عدوة الله أتزنين وتعتذرين بمثل هٰذا؟

فقالت: أوَّه تركت السنّة، وأخذت بمذهب ابن عباس.

فتنبه، ورمى بالسوط من يده، واعتذر إليها، وقال: لولا أنت لضللت.

ورأى آخر رجلاً يفجر بامرأته، فقال: ما هٰذا؟

فقالت: هٰذا قضاء الله وقدره.

فقال: الخيرة فيما قضى الله. فلقب بالخيرة فيما قضى الله[1].

ولو كان الاحتجاج بالقدر صحيحاً لأمكن لكل واحد أن يقتل ويفسد ويأخذ الأموال ويظلم العباد، فإذا سئل عن أفعاله احتج بالقدر، وكل العقلاء يعلمون بأن هٰذه الحجة مرفوضة غير مرضية، وإلا فإن الحياة تفسد.

وكثير من الذين يحتجون بالقدر لظلمهم وفسقهم وضلالهم يثورون إذا ما وقع عليهم الظلم، ولا يرضون من غيرهم أن يحتج على ظلمه لهم بالقدر.

---

(١) نقل عن ابن القيم هٰذه الوقائع وغيرها صاحب معارج القبول: ٢/ ٢٥٥.

إن المنهج الذي فقهه علماؤنا عن ربنا ونبينا أنه يجب علينا أن نؤمن بالقدر، ولكن لا يجوز لنا أن نحتج به على ترك العمل، كما لا يجوز لنا أن نحتج به على مخالفتنا للشرع، وإنما يحتج بالقدر على المصائب دون المعايب.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «العبد له في المقدور حالان: حال قبل القدر وحال بعده.

فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه، فإذا قدر المقدور بغير فعله فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به، وإن كان بفعله وهو نعمة حمد الله على ذلك، وإن كان ذنباً استغفر إليه من ذلك.

وله في المأمور حالان:

حال قبل الفعل، وهو العزم على الامتثال والاستعانة بالله على ذلك، وحال بعد الفعل وهو الاستغفار من التقصير وشكر الله على ما أنعم به من الخير. قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥] أمره أن يصبر على المصائب المقدرة، ويستغفر من الذنب.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وقال يوسف: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

فذكر الصبر على المصائب والتقوى بترك المعائب، وقال النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو

تفتح عمل الشيطان»[1] [2].

إن العبد المؤمن الحصيف لا يترك العمل بدعوى أنَّ قدر الله ماض فيه، بل الواجب عليه أن يأخذ الأمر بقوة، يعلم ما يطلبه الله، ويفكر فيما يفيده وينفعه، ثمَّ يبذل قصارى جهده في القيام بأمر الله، وبالأخذ بالأسباب للأمور التي يظن أن فيها نفعه وصلاحه، فإذا لم يوفق فلا يقضي وقته بالتحسر والتأسف، وإنما يقول في هٰذا الموضع قدر الله وما شاء فعل.

إن الإيمان بالقدر والاحتجاج به يأتي لمعالجة المشكل النفسي الذي يذهب الطاقة الإنسانية ويبددها في حال الفشل والإخفاق، ولا يكون مانعاً من العمل والإبداع في مقبل الزمان.

استدلالهم بحديث احتجاج آدم بالقدر:

وقد يستدل من قلَّ علمه بحديث احتجاج آدم وموسى على الاحتجاج بالقدر في المعايب، وهو حديث صحيح روته كتب الصحاح والسنن.

روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما، فحج آدم موسى.

قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثمَّ أُهبط الناس بخطياتك إلى الأرض؟

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة: ٤/ ٢٠٥٢. ورقم الحديث: ٢٦٦٤.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٧٦.

فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟

قال موسى: بأربعين عاماً.

قال آدم: فهل وجدت فيها: وعصى آدم ربّه فغوى؟

قال: نعم.

قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟

قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى»[1].

وليس في هٰذا الحديث حجة للذين يحتجون بالقدر على القبائح والمعايب، فآدم عليه السلام لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وموسى عليه السلام لم يلم أباه آدم على ذنب تاب منه، وتاب الله عليه منه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم من موسى على المصيبة التي أخرجت آدم وأولاده من الجنّة.

فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة، فإن القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعايب[2].

---

(١) رواه مسلم: ٢٠٤٣/٤ ورقم الحديث ٢٦٥٢. وللحديث عند مسلم عدة روايات، وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع من كتابه. ورواه أبو داود والترمذي في سننهما. انظر روايات الحديث في جامع الأصول: (١٠/ ١٢٤).

(٢) شرح الطحاوية: ص١٥٤. وأجاب بهٰذا الجواب شيخ الإسلام أيضاً: انظر شفاء العليل: ص ٣٥.

فعلى العبد أن يستسلم للقدر إذا أصابته مصيبة ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، أما المذنبون فليس لهم الاحتجاج بالقدر، بل الواجب عليهم أن يتوبوا ويستغفروا ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥] فأرشد إلى الصبر في المصائب والاستغفار من الذنوب والمعايب.

والله ذم إبليس لا لاعترافه بالمقدر في قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الحجر:٣٩]، وإنما على احتجاجه بالقدر.

وأجاب ابن القيم عن الإشكال الذي وقع في حديث احتجاج آدم بالقدر بجواب آخر فقال: «الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع، ويضر في موضع، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه، وترك معاودته، كما فعل آدم، فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع، لأنّه لا يدفع بالقدر أمراً ولا نهياً، ولا يبطل به شريعة، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءَة من الحول والقوة.

يوضحه أن آدم قال لموسى: أتلومني على أن عملت عملاً كان مكتوباً عليّ قبل أن أخلق؟ فإذا أذنب الرجل ذنباً ثُمَّ تاب منه توبة، وزال أمره حتى كأن لم يكن، فأنَّبهُ مؤنب عليه ولامه، حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك ويقول: هٰذا أمر كان قد قدر علي قبل أن أخلق، فإنه لم يدفع بالقدر حقاً، ولا ذكره حجّة له على باطل ولا محذور في الاحتجاج به.

وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به، ففي حال المستقبل بأن يرتكب فعلاً محرماً أو يترك واجباً، فيلومه عليه لائم، فيحتج بالقدر على إقامته

عليه، وإصراره، فيبطل به حقاً، ويرتكب به باطلاً، كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله»[1].

هل الرضا بالمقدور واجب؟

إذا كانت المعاصي بقضاء الله فكيف لنا أن نكره قضاءه ونبغضه، والجواب: «أنه لا يوجد في كتاب الله، ولا في سنة رسوله ﷺ آية ولا حديث يأمر العباد بأن يرضوا بكل مقدر من أفعال العباد حسنها وسيئها، ولكن الواجب على الناس أن يرضوا بما أمر الله به، فليس لأحد أن يسخط ما أمر الله به. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وينبغي للعبد أن يرضى بما يقدره الله عليه من المصائب التي ليست ذنوباً، مثل أن يبتليه بفقر أو مرض أو ذل وأذى الخلق له، فإن الصبر على المصائب واجب، وأما الرضا بها فهو مشروع، ولكن هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين لأصحاب أحمد وغيرهم: أصحهما أنه مستحب ليس بواجب»[2].

الوجه السادس: الزعم بأن تكليف العباد غير ما فعلوا هو من باب التكليف بما لا يطاق:

وزعم من ذهب هذا المذهب أن فاعلي المعاصي والذنوب لا

(١) شفاء العليل: ص٣٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٩٠.

يستطيعون غير ما فعلوا، وتكليفهم بخلاف ما فعلوا تكليف بما لا يطاق، وتكليف مالا يطاق جاءت الشريعة بنفيه في قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧]، واحتجوا بمثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف:١٠١]، وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩].

قالوا: فهٰذه الآيات مصرحة بأنهم لم يكونوا يستطيعون الفعل، وهٰؤلاء ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وزعموا أنه متناقض، وحاشاه أن يكون كذلك.

والجواب عما شغبوا به «أن الاستطاعة المنفية في الآيات التي احتجوا بها ليست هي الاستطاعة المشروطة في الأمر والنهي، فإن تلك إذا انتفت انتفى الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والحمد والذم، والثواب والعقاب. ومعلوم أن العباد في هٰذه الحال مأمورون منهيون موعودون متوعدون، فعلم أن المنفية ليست هي المشروطة في الأمر والنهي»(١).

فالاستطاعة المنفية في الآيات التي احتجوا بها ليست بسبب استحالة الفعل أو عجزهم عنه، وإنما هي بسبب تركهم له والاشتغال بضده، كالكافر كلفه الله الإيمان في حال كفره، لأنه غير عاجز عنه ولا مستحيل فعله، فهو كالذي لا يقدر على العلم لاشتغاله بالمعيشة(٢).

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٩١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٩٦.

أما الاستطاعة التي هي مناط التكليف، فهي المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]، ومثل قوله ﷺ: «صلِّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب».

ومعلوم أن الله لا يكلف مالا يطاق لوجود ضده من العجز، فلا يكلف المقعد بأن يصلي قائماً، ولا يكلف المريض بالصيام، ولا يكلف الأعمى بالجهاد والقتال، لخروج ذلك عن المقدور.

وقد اتفق أهل العلم أن العبد إذا عجز عن بعض الواجبات سقط عنه ما عجز عنه، فمن قطعت منه رجله سقط عنه غسلها، ومن لم يستطع اغتسال الجنابة أو القيام أو الركوع ونحو ذلك سقط عنه ما عجز عنه. وبذلك يظهر لك أن عدم الاستطاعة المذكورة في الآيات التي احتج بها هٰذا الفريق غير مشروطة في شيء من الأمر والنهي والتكليف باتفاق المسلمين، والاستطاعة الشرعية الي هي مناط الأمر والنهي في الآيات التي سقناها هي التي لم يكلف الله أحداً شيئاً بدونها[1].

الوجه السابع: يلزم من قولهم التسوية بين المُخْتَلِفَيْن:

لقد أدى هٰذا المذهب بأصحابه والقائلين به إلى التسوية بين الأخيار والفجار، والأبرار والأشرار، وأهل الجنة وأهل النار، وقد فرق بينهم العليم الخبير ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٣٠.

نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٧-٢٨]، وقال: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

المبحث الثالث

مذهب أهل السنة والجماعة في القدر

بينا لك مذاهب الذين ضلوا في القدر، وأحب هنا أن أذكر مذهب أهل السنة والجماعة في هٰذا الباب، وقد دون مذهبهم كثير من أهل العلم، وأنا أسوق هنا ما دوّنه ثلاثة من أعلامهم.

المطلب الأول

شيخ الإسلام ابن تيمية يلخص مذهبهم

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأجزل له المثوبة: «مذهب أهل السنة والجماعة في هٰذا الباب ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أنَّ الله خالق كلّ شيء ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد.

وأنّه سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءَه، بل هو القادر على كل شيء، ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه.

وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون،

وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها، وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم: قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة.

فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابته إياها قبل أن تكون»[1].

«وسلف الأمّة وأئمتها متفقون على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به، منهيون عما نهاهم الله عنه، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة.

ومتفقون على أنه لا حجّة لأحد على الله في واجب تركه، ولا محرّم فعله، بل لله الحجّة البالغة على عباده»[2].

«ومما اتفق عليه سلف الأمّة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأن العباد لهم مشيئة وقدرة، يفعلون بقدرتهم ومشيئتهم ما أقدرهم الله عليه مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله»[3].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٤٩.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٥٢.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٥٩.

المطلب الثاني

عقيدة الإمام أبي بكر محمد الحسين الآجُرِّي في القدر

قال رحمه الله: «مذهبنا في القدر أن نقول: إن الله عز وجل خلق الجنة وخلق النار، ولكل واحدة منهما أهل، وأقسم بعزته أنه يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين.

ثم خلق آدم عليه السلام، واستخرج من ظهره كل ذرية هو خالقها إلى يوم القيامة. ثم جعلهم فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

وخلق إبليس، وأمره بالسجود لآدم عليه السلام، وقد علم أنه لا يسجد للمقدور، الذي قد جرى عليه من الشقوة التي سبقت في العلم من الله عز وجل، لا معارض لله الكريم في حكمه، يفعل في خلقه ما يريد، عدلاً من ربنا قضاؤه وقدره.

وخلق آدم وحواء عليهما السلام، للأرض خلقهما، أسكنهما الجنة، وأمرهما أن يأكلا منها رغداً ما شاءا، ونهاهما عن شجرة واحدة أن لا يقرباها، وقد جرى مقدوره أنهما سيعصيانه بأكلهما من الشجرة. فهو تبارك وتعالى في الظاهر ينهاهما، وفي الباطن من علمه: قد قدر عليهما أنهما يأكلان منها ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]. لم يكن لهما بُدٌّ من أكلهما، سبباً للمعصية، وسبباً لخروجهما من الجنة، إذ كانا للأرض خلقا، وأنه سيغفر لهما بعد المعصية، كل ذلك سابق في علمه، لا يجوز أن يكون شيء يحدث في جميع خلقه، إلا وقد جرى مقدوره به، وأحاط به علماً قبل كونه أنه سيكون.

خلق الخلق، كما شاء لما شاء، فجعلهم شقياً وسعيداً قبل أن يخرجهم إلى الدنيا، وهم في بطون أمهاتهم، وكتب آجالهم، وكتب أرزاقهم، وكتب أعمالهم، ثم أخرجهم إلى الدنيا، وكل إنسان يسعى فيما كُتِبَ له وعليه.

ثم بعث رسله، وأنزل عليهم وحيه، وأمرهم بالبلاغ لخلقه، فبلغوا رسالات ربهم، ونصحوا قومهم، فمن جرى في مقدور الله عز وجل أن يؤمن آمن، ومن جرى في مقدوره أن يكفر كفر، قال الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [التغابن: ٢] أحب من أراد من عباده، فشرح صدره للإيمان والإسلام، ومقت آخرين، فختم على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلن يهتدوا أبداً، يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

الخلق كلهم له، يفعل في خلقه ما يريد، غير ظالم لهم، جل ذكره عن أن ينسب ربنا إلى الظلم، إنما يظلم من يأخذ ما ليس له بملك، وأما ربنا عز وجل فله ما في السمٰوات وما في الأرض وما بينهما، وما تحت الثَّرى، وله الدنيا والآخرة، جل ذكره، وتقدست أسماؤه، أحب الطاعة من عباده، وأمر بها، فجرت ممن أطاعه بتوفيقه لهم، ونهى عن المعاصي، وأراد كونها من غير محبته منه لها، ولا للأمر بها، تعالى الله عز وجل أن يأمر بالفحشاء، أو يحبها، وجل ربنا وعز أن يجري في ملكه مالم يرد أن يجري، أو شيء لم يحط به علمه قبل كونه، قد علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وبعد أن يخلقهم، قبل أن يعملوا قضاء وقدراً.

قد جرى القلم بأمره عز وجل في اللوح المحفوظ بما يكون، من برّ أو فجور، يثني على من عمل بطاعته من عبيده، ويضيف العمل إلى العباد، ويعدهم عليه الجزاء العظيم، ولولا توفيقه لهم ما عملوا ما استوجبوا به منه الجزاء ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١] وكذا ذم قوماً عملوا بمعصيته، وتوعدهم على العمل بها، وأضاف العمل إليهم بما عملوا، وذلك بمقدور جرى عليهم، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

قال محمد بن الحسين رحمه الله تعالى: هٰذا مذهبنا في القدر»[(١)].

المطلب الثالث

عقيدة الطحاوي في القدر

يقول الطحاوي رحمه الله في القدر: «خلق الخلق بعلمه، وقدر لهم أقداراً وضرب لهم آجالاً، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته.

وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء الله لهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلاً.

---

(١) الشريعة للآجري: ١٥٠-١٥٢.

وكلهم متقلبون في مشيئته بين فضله وعدله.

وهو متعال عن الأضداد والأنداد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره.

آمنا بذلك كله، وأيقنا أن كلاً من عنده»[1].

«وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنّة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزاد في ذلك العدد، ولا ينقص منه.

وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله.

وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.

فهٰذا جملة ما يحتاج إليه من هو منوّرٌ قلبه من أولياء الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم، لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود

(١) العقيدة الطحاوية شرح وتعليق الشيخ ناصر الدين الألباني: ص٢١.

كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك العلم المفقود.

ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد قدر، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى في أنه كائن، ليجعلوه غير كائن، لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبدَ لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض، ولا معقب، ولا مزيل ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سمٰواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢]. وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨]، فويل لمن صار في القدر لله خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً»[١].

---

(١) العقيدة الطحاوية: ٣١.



الفَصْل السَّادِس

أسْبابُ الضَّلالِ في القَدَر

والسبب في ضلال كل من القدرية النفاة والقدرية المجبرة في هٰذا الباب أن كل واحد من الفريقين رأى جزءاً من الحقيقة وعمي عن جزء منها، فكان مثله مثل الأعور الذي يرى أحد جانبي الشيء، ولا يرى الجانب الآخر، فالقدرية النفاة الذين نفوا القدر قالوا: إن الله لا يريد الكفر والذنوب والمعاصي ولا يحبها ولا يرضاها، فيكف نقول إنه خلق أفعال العباد وفيها الكفر والذنوب والمعاصي.

والقدرية المجبرة آمنوا بأن الله خالق كل شيء، وزعموا أن كل شيء خلقه وأوجده فقد أحبَّه ورضيه.

وأهل السنة والجماعة أبصروا الحقيقة كلها، فآمنوا بالحق الذي عند كل واحد من الفريقين، ونفوا الباطل الذي تلبس به كل واحد منها.

فهم يقولون: «إن الله وإن كان يريد المعاصي قدراً، فهو لا يحبها، ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها وينهى عنها».

وهٰذا قول السلف قاطبة، فيقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهٰذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله لم يحنث إذا لم يفعله، وإن كان واجباً أو مستحباً.

ولو قال: إن أحب الله، حنث إن كان واجباً أو مستحباً.

والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان:

إرادة قدرية خلقية، وإرادة دينية شرعية.

فالإرادة الشرعية هي المتضمنة المحبة والرضا، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات.

فالإرادة الشرعية كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فهٰذا النوع من الإرادة لا تستلزم وقوع المراد، إلا إذا تعلق به النوع الثاني من الإرادة، وهٰذه الإرادة تدل دلالة واضحة على أنه لا يحب الذنوب والمعاصي والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاها، وإن كان شاءها خلقاً وإيجاداً.

وأنه يحب ما يتعلق بالأمور الدينية ويرضاها ويثيب عليها أصحابها، ويدخلهم الجنة، وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وينصر بها العباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين[1].

وهٰذه الإرادة تتناول جميع الطاعات حدثت أو لم تحدث[2].

---

(١) راجع شرح الطحاوية: ص١١٦. ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٨٨، ٥٨.

(٢) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٩٨/٨.

والإرادة الكونية القدرية هي الإرادة الشاملة لجميع الموجودات، التي يقال فيها: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهٰذه الإرادة مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

وهٰذه الإرادة إرادة شاملة لا يخرج عنها أحد من الكائنات، فكل الحوادث الكونية داخلة في مراد الله ومشيئته هٰذه، وهٰذه يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأهل الجنّة وأهل النار، وأولياء الله وأعداؤه، وأهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه، ويصلي عليهم هو وملائكته، وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون[١].

وهٰذه الإرادة تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصي دون مالم يحدث منها[٢].

والمخلوقات مع كل من الإرادتين أربعة أقسام:

الأول: ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراده إرادة دين وشرع، فأمره وأحبه ورضيه، وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك ما كان.

والثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من

(١) راجع: شرح الطحاوية: ص ١١٦ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/١٩٨، ٥٨.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/١٩٨.

الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين، وهو يحبها ويرضاها وقعت أو لم تقع.

والثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره الله وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي، فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والرابع: ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا مالم يقع ولم يوجد من أنواع المباحات والمعاصي(١).

والسعيد من عباد الله من أراد الله منه تقديراً ما أراد به تشريعاً، والعبد الشقي من أراد به تقديراً مالم يرد به تشريعاً، وأهل السنة والجماعة الذين فقهوا دين الله حق الفقه، ولم يضربوا كتاب الله بعضه ببعض، علموا أنَّ أحكام الله في خلقه تجري على وفق هاتين الإرادتين، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيراً، ومن نظر إلى الشرع دون القدر، أو نظر إلى القدر دون الشرع كان أعور، مثل قريش الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨](٢).

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٨٩.

(٢) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٩٨.

الفصل السابع

ثمار الإيمان بالقدر

بينا من قبل أن عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام مبرأة من التخاذل والكسل والخمول الذي أصاب قطاعاً كبيراً من الأمّة الإسلامية عبر العصور باسم الإيمان بالقدر، والمسؤول عن ذلك هو انحراف المسلمين في باب القدر حيث لم يفقهوه على وجهه.

ومن تأمل في عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام وجد لها ثماراً كثيرة طيبة، كانت ولا زالت سبباً في صلاح الفرد والأمّة.

وسنحاول أن نجلي بعض ثماره التي ظهرت خلال هٰذه الدراسة.

١- الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك:

لقد زعم كثير من الفلاسفة أن الخير من الله، وأن الشر من صنع آلهة من دونه، وإنما قالوا هٰذا القول فراراً من نسبة الشر إلى الله تعالى[١].

والمجوس زعموا أن النور خالق الخير، والظلمة خالقة الشر.

والذين زعموا من هٰذه الأمّة أن الله لم يخلق أفعال العباد، أو لم يخلق الضال منها أثبتوا خالقين من دون الله.

ولا يتم توحيد الله إلا لمن أقرَّ أن الله وحده الخالق لكل شيء

(١) شفاء العليل: ص١٤.

في الكون، وأن إرادته ماضية في خلقه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكل المكذبين بالقدر لم يوحدوا ربهم، ولم يعرفوه حق معرفته، والإيمان بالقدر مفرق طريق بين التوحيد والشرك. فالمؤمن بالقدر يُقرُّ بأن هٰذا الكون وما فيه صادر عن إلٰه واحد ومعبود واحد، ومن لم يؤمن هٰذا الإيمان فإنه يجعل من دون الله آلهة وأرباباً.

٢- الاستقامة على منهج سواء في السراء والضراء:

العباد بما فيهم من قصور وضعف لا يستقيمون على منهج سواء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء، لا تبطره النعمة، ولا تيئسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدبيره ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. ولا يكون حاله حال قارون الذي بغى على قومه، واستطال عليهم بما أعطاه الله من كنوز وأموال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ * وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

فإذا أصاب العبد الضراء والبلاء علم أن هٰذا بتقدير الله ابتلاء منه، فلا يجزع ولا ييأس، بل يحتسب ويصبر، فيسكب هٰذا الإيمان في قلب العبد

المؤمن الرضا والطمأنينة ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وقد امتدح الله عباده: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

٣- المؤمن بالقدر دائماً على حذر:

المؤمنون بالقدر دائماً على حذر ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] فقلوب العباد دائمة التقلب والتغير، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء، والفتن التي توجه سهامها إلى القلوب كثيرة، والمؤمن يحذر دائماً أن يأتيه ما يضله كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهٰذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الدائبة للاستقامة، والإكثار من الصالحات، ومجانبة المعاصي والموبقات.

كما يبقى قلب العبد معلقاً بخالقه، يدعوه ويرجوه ويستعينه، ويسأله الثبات على الحق، كما يسأله الرشد والسداد.

٤- مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت:

إذا آمن العبد بأنَّ كل ما يصيبه مكتوب، وآمن أن الأرزاق والآجال بيد الله، فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب ثابت وهامة مرفوعة، وقد كان

هٰذا الإيمان من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيابين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب الموت في مظانه، ويرمي بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته، ثمَّ تراه يموت على فراشه، فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيداً، وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال.

وكان هٰذا الإيمان من أعظم ما ثَبَّت قلوب الصالحين في مواجهة الظلمة والطغاة، لا يخافون في الله لومة لائم، لأنهم يعلمون أن الأمر بيد الله، وما قدر لهم سيأتيهم.

وكانوا لا يخافون من قول كلمة الحق خشية انقطاع الرزق، فالرزق بيد الله، وما كتبه الله لعبده من رزق لا يستطيع أحد منعه، وما منعه الله لعبد من عبيدة لا يستطيع أحد إيصاله إليه.

المراجع

١- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد. دار الآفاق الجديدة - بيروت. الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٢- جامع الأصول لابن الأثير. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. مكتبة الحلواني وآخرون. ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

٣- سنن أبي داود. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية - القاهرة.

٤- سنن الترمذي. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٥- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة. لأبي القاسم هبة الله بن الحسين الطبري اللالكائي. دار طيبة - الرياض.

٦- شرح العقيدة الطحاوية. المكتب الإسلامي - بيروت. الرابعة ١٣٩١هـ.

٧- شرح النووي على صحيح مسلم. المطبعة المصرية ومكتبتها. القاهرة.

٨- الشريعة للآجري. دار الكتب العلمية - بيروت. الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٩- شفاء العليل لابن القيم. دار الكتاب العربي - مصر.

١٠- صحيح البخاري. اعتمدت على متن فتح الباري. طبعة السلفية.

١١- صحيح الجامع الصغير. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت.

١٢- صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر الدين الألباني. مكتب التربية العربي. الرياض. الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٣- صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث - بيروت الثانية ١٩٧٢م.

١٤- العقيدة الطحاوية. شرح وتعليق الشيخ ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت الأولى. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١٥- فتح الباري لابن حجر. طبعة السلفية - القاهرة.

١٦- الفرق بين الفرق لعبد القاهر بن طاهر الإسفراييني. دار المعرفة - بيروت.

١٧- القاموس المحيط للفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة - بيروت. الأولى. ١٤٠٦هـ.

١٨- لوامع الأنوار البهية. للسفاريني. دولة قطر.

١٩- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير. المكتبة العلمية - بيروت.

٢٠- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع ابن قاسم. طبع دولة المملكة العربية السعودية.

٢١- مشكاة المصابيح. للخطيب التبريزي. بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. بيروت ١٣٨٣هـ - ١٩٦٢م.

٢٢- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد لأحمد حافظ حكمي. مطبوعات الرئاسة العلمية لإدارات البحوث - الرياض.

٢٣- معالم السنن للخطابي على مختصر سنن أبي داود للمنذري. مطبعة السنة المحمدية. ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

٢٤- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني. تحقيق محمد سيد كيلاني. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر. ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

٢٥- الملل والنحل للشهرستاني. دار المعرفة - بيروت. الثانية. ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

الفهرس

رقم الإيداع
2005/5860
الترقيم الدولي I.S.B.N
977 - 342 - 278 - x